بعد المحنة

●

نخرج الان ، من بين الركام والضحايا ، لننفض عن كواهلنا غبار الشر المستطير الذي جثم على صدر لبنان ، عشرة اشهر ، ذاق فيها الناس هنا ، ما لم يذقه شعب في تاريخ قديم او حديث .

ومجلة « الاديب » التي لم تقو على اسكات صوتها مدافع الحرب العالمية الثانية ، والضائقة اثر الضائقة ، مما تحملناه قوميا وشخصيا في هذا الشرق العربي ، كانت احدى المؤسسات الفكرية التي شاركت في دفع الثمن الباهظ ، فاضطرتها المحنة الدامية الى الاحتجاب ، وهددت القذائف المجنونة حياة منشئها وعائلته ، بعدما اتت النيران والقنابل على اقسام كبيرة من مكاتبها وغرف المنزل القائم في أكثر مناطق بيروت حدة وحرارة، وتعرضا لنيران الفرقاء المتحاورين بلغة الدمار الرهيب .

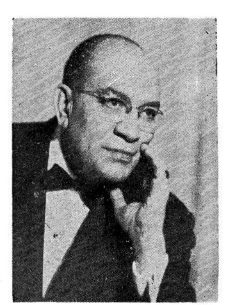
وفي هذا العدد المزدوج الذي يصدر على هذه الصورة القسرية ، للمرة الاولى منذ نشأتها ، تحاول « الاديب » ان تستدرك ما كاد ينبت من الوشائج الفكرية بينها وبين قارئها ، وان تسابق الايام السوداء التي جرت سراعا ، وفي يقينها ان كل وسائل النار والدمار لن تستطيع ان تخرس كلمة العقل ، ولن تقوى على قهر ارادة المحبة في بناء الاوطان .

واذا كانت « الاديب » تشكر من الاعماق كل أحبائها وأصدقائها وقرائها الذين تلطفوا بالاستفسار عنها ، وعن منشئها وهيئة تحريرها ، فهي تود ان تجدد عهدها للمؤمنين مثلها بأن كل دولة تدول ، الا دولة الفكر ، فهي الى غير زوال لان بنيانها المرصوص قائم على أسس المعرفة البصيرة الواعية .

ولسوف نستأنف المسيرة الصاعدة ، في خدمة الادب العربي، بالتعاون مع الاقلام العربية الخيرة التي سوف تتخذ من احداث لبنان عبرة تفيدها في مقبلات الايام ، على امتداد اقطارها ، لاجل اطلاق قيم الانسان من اسارها ، وكبح جماح الوحش الكامن في اعماق الكائن البشري .

ان مجلة « الاديب » ، وهي تضمد جراحها بشموخ وكبرياء شبيهين بشموخ لبنان الجريح وكبريائه ، لتعرف انها مدعوة الى اعادة البناء ، وهي واثقة بأن كل احقاد الشر ستندحر امام سماحة الخير ، في نهاية المطاف!

الاديب



الدكتور احمد زكي ابو شادي

حديث مستطرد عن ابي شادي

بقلم وديع فلسطين

• • •

على قرب عهدنا بالشاعر الناثر العالم الاديب الفذ الدكتور احمد زكي ابي شادي ، بدأنا نختلف على حقائق ثابتة ، بل منشورة ، في سيرته واعماله ، هذا على الرغم من ان ابا شادي كان من أغنى الادباء المعاصرين بالدراسات التي انعقدت عليه في حياتهوبعد وفاته ، فقد كان موضوع رسالة جامعيةنال بهاصاحبها الدكتور كمال نشأت درجة الدكتوراة كما كانت مجلته « ابولو » موضوع دراسة اخرى نال بها صاحبها الدكتور عبد العزيز الدسوقي درجة الماجستير ، عدا كتاب « رائد الشعر الحديث »بجزئيه للدكتورمحمدعبد المنعم خفاجي ، وكتيب اخر لمحمد عبد الفتاح ابراهيم ، ودع عنك الدراسات المستفيضة التي دبجت عنه بأقلام اساتذة الادب ومنها كتاب كبير بالانكليزية لاسماعيل أحمد ادهم ، وكتاب صدر فيالعام الفائتعن جماعة ابولو بمناسبة انقضاء اربعين عاما على صدور مجلتها ، وقد أشرف على تحريره الدكتور خفاجي ومصطفى عبد اللطيف السحرتي وحررت فصوله باقلام أصدقاء ابيشادي وتلاميذه .

وفي الاوان الاخير ، قرأت في ثلاثة مواضع استنتاجات تنقصها الدقة عن أبي شادي ولعل من الاحجى تصويبها قبل ان تستقر في أبهاء التاريخ الادبي استقرارا يتعذر المساس به . وليس مقصدي ان أخطيء احدا ، وانما مقصدي ان أذكر بوقائع هي في متناول اليد .

فقد كتب سالم علوان الجلبي من بصرة العراق فصلا في « اديب » ابريل ١٩٧٥ استنتج فيه من قولي انيوقفت على قبر ابي شادي في وشنطن في ٨ سبتمبر ١٩٥٥ بعدثلاثة اشهر من وفاته ، ان تلك الوفاة قد وقعت في يوم ٨ ابريل ١٩٥٥ على وجه القطع والتحديد ، وهو استنتاج متعسف يحمل الالفاظ اكثر مما تحتمل ويؤولها بغير ما تشير اليه. وهو لو رجع الى مجلة « الاديب » لوقع في عدد يونيو ١٩٥٧ على فصل لي عنوانه «رجل المباديء احمد زكي ابو شادي» وقد كتبته بمناسبة انقضاء عامين على وفاته في ١٢ ابريل ١٩٥٥ ، وهو التاريخ الصحيح لوفاته الذي أكده جرجي نصر في عدد يونيو ١٩٧٥ من « الاديب » بعد رجوعه الى كتابات استاذنا العلامة روكس بن زائد العزيزي .

ولست في حاجة الى نقل تاريخ وفاة أبي شادي من صحف او مراجع ، فما زالت تحت يدي البرقية التيتلقيتها من اسرته في واشنطن تنعاه يوم وفاته . فضلا عن انني قرأت تاريخ الوفاة محفورا عى اللوحة البرونزية المثبتةعلى قبر ابي شادي في ضواحي وشنطن .

وصديقنا اديب مروة ، صاحب مجلة « السياحة » اللبنانية ، شاء ان يحيي فؤاد القصاص الذي يصدر جريدة عنوانها « المصري » في لوس انجليس ، بمناسبة الدعوة التي قادها لاقامة مهرجان شعري كبير لشاعرالمهجر الاكبر جورج صيدح تكريماله على اياديه على الادب والشعر المهجري بوجه خاص ، فكتب في عدد ١٥ يونيو ١٩٧٥ من « السياحة » كلمة قال فيها ان محاولة القصاص اصدار جريدة مصرية في امريكا هي « المحاولة الثانية بعد محاولة المرحوم الشاعر زكي أبي شادي الذي اصدر مجلة ابولو في امريكا في الثلاثينات من هذا القرن » .

ومجلة « أبولو » — التي صورت مجموعتها اخيرا في لبنان وطبعت بطريقة الاوفست — كانت كما يعلم الذين خضرمهم الله — وليس منهم اديب مروه المتجدد الشباب والفتوة ! — تصدر في القاهرة لا في أمريكا ، وان هجرة أبي شادي الى الولايات المتحدة لم تتم الا بعد الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٦ لافي الثلاثينات من هذا القرن .

واستاذنا الكبير رشاد علي أديب ، هزته اريحيته فوجه الي تحية سخية مشكورة في عدد اغسطس ١٩٧٥ من « الاديب » قال فيها انني كنت عضوا في جمعية ابولو المشهورة ، وهو شرف لا ادعيه وتهمة لا ادفعها ، كما يقول مكرم عبيدباشا ! ولعلاستاذنا رشادا استنتج هذهالعضوية من كتابات اخي الحميم الدكتور خفاجي الذي لا يفتأ ينسب الي في كتبه صفات ليست لي ، ويضعني في منازل ادبية لا احلم ببلوغها او الظفر بشيء منها . والخفاجي قد

قال في غير موضع واحدمن كتاباته انني من امتدادات جماعة « أبولو » ومن المؤتمين برائدها ابي شادي والمتأثريــــن باتجاهاتها ، فجاء استاذنا رشاد وتفضل فجعل تنصيبي عضوا في الجمعية من فيوض كرمه وسخائه .

وفي هذا الصدد ، قرأت في عدد سبتمبر ١٩٧٥ مــن مجلة « العربي » الكويتية كلمة عنوانها « جمعيـــة ابولــو الادبية في مصر » كتبها صديقنا الاديب الكبير م . خ . ت . وهو هو محمد خليفة التونسي ولا سواه . ويبــدو ان التونسي اذ يعيش في غربته النائية بعيدا عن مراجعه ، ولم تسعفه الذاكرة وهو يحصي رواد جماعة أبولو الا بأسماء الدكتور ابراهيم ناجي وصالح جودت ومحمد حسن اسماعيل ومحمد عبد المعطي الهمشري وجميلة العلايلي وابي القاسم الشابي وطاهر زمخشري . ولكن ذاكرة التونسي خانتـه ففاته ايراد اسماء حسن كامل الصيرفي ومحمود أبي الوفا ومصطفى عبد اللطيف السحرتي والدكتور مختار الوكيـل وعامر محمد بحيري والدكتور عبد العزيز عتيق وعلي احمد باكثير وشفيق معلوف ومحمد مصطفى الماحي ومحمد مهدي الجواهري والياس ابي شبكة وغيرهم من الشعراء الذيـن اتصلوا بأبولو وأبي شادي ، ونشروا شعرهم في مجلتــه ، وعرفوا في العالم الادبي لاول مرة بفضل هذه المجلة . ومن هؤلاء الادباء والشعراء من انبعث بأمانة الضمير الى الاقرار بأنه لولا استاذية أبي شادي ورعايته وتوجيهه الحاني ، لما عرفوا كيف يشقون طريقهم في الحياة الادبية التي كانت حتى ذلك الوقت تعيش في بهرة أباطرة الشعر شوقي وحافظ ومطران ، والعقاد والمازني والرافعي .

سقت هذه الاستدراكات كمدخل الى حديث مستطرد عن الدكتور احمد زكي أبي شادي الذي رج الحياة الادبية في مصر رجة موقظة في العقد الثالث من هذا القرن ، سواء بمجلته « أبولو » او بمطبعته ، او بكتبه ، او بمحاضراته ، او بندواته ، او بجمعياته الادبية والعلمية والاجتماعية ، او باتصالاته ، او برعايته للجيل الناشيء من النقاد والشعراء والعلماء واهل الفكر .

وعلى مثل هذا النشاط ثابر الدكتور أبو شادي حتى بعد هجرته الى الولايات المتحدة . فهناك انشأ « رابطــة منيرفا » ــ ومن ابرز اعضائها الاحياء الشاعر الكبير نعمه الحاج أطال الله عمره وامده بالصحة والعافية ــ وانشــأ « المكتب الادبي المصري » وهو العنوان الذي اطلقه علـى مكتبه الخاص في نيويورك ، واتصل بالجامعات الاميركية ، ومعاهد آسيا والشرق الاوسط وحاضر فيها وحرر فـي مجلاتها ، وبعث الحيوية في الاذاعات الاميركية ، وشارك في برامجها الادبية والشعرية والتمثيلية ايضا ، وطير مقالاته ودراساته لتنشر في المجلات الادبية او العلمية او الدينية التي تصدر في العالمين العربي والاسلامي ، ولم يدع ظاهرة من ظواهر الفكر الا عالجها واستجلاها ونبه اليها ، ولــم يهمل كتابا نفيسا الا عرف به واحسن تقويمه وتقييمه ، ولم يغفل اديبا مرجوا او شاعرا مأمولا او كاتبا ترجى خطاه الا اعتنى بهم وعرف بآثارهم ووجههم الوجهة التي تخــدم رسالة الادب ، وشجعهم بروح استاذيته واتصل بهم وتابعهم أيا كان مقامهم في دنيا العرب العريضة .

بدات صلتي بأبي شادي بعد هجرته لا قبلها ، وعرفته من رسائله وكتاباته ولم اعرفه بشخصه ، وان كانت المودة التي نشأت بيننا وتجاوبت لها روحانا قد قامت مقام اللقاء وكادت تغني عنه . فبينما أنا عاكف ذات يوم على عملي في جريدة « المقطم » ، زارني الاخ النبيل والاديب الاصيل مصطفى عبد اللطيف السحرتي ، وتحت ابطه اضبارة كبيرة وفي يمينه لفافة من الورق كاللفافات التي يحملها المهندسون. فقلت للســــحرتي : ماذا وراءك يا عصام ؟ هــل تراك انصرفت الى دراسة الهندسة ورسم الخارطات الطويلة والمستعرضة ؟ فأجاب : كلا ، فما غادرت ميدان الادب . وهذه اللفافة الاسطوانية الشكل هي صورة للحفل الكبيـر الذي اقامته اكاديمية الشعراء الاميركيين وجمعية الشعراء الاميركية في فندق والدورف استوريا لتكريم صديقنا ابي شادي يوم ٣٠ من ابريل ١٩٥٠ . وهذه الاواق التي انــا متأبطها هي طائفة مختارة من الكلمات والقصائد التي القيت في حفل تكريمه .

فقلت للسحرتي : عجيب ان تقام حفلة كهذه لتكريم اديب مصري في أمريكا ثم لا تنشر عنها الصحف المصرية حرفا . تعال نستدرك هذا التقصير في جريدتنا . وفعـلا خصصنا صفحة كاملة من الجريدة لوصف الحفل وما قيل فيه ، ونشرنا صورة الحفل في صدر الصفحة ، ونشرنـا في اعداد تالية ما تيسر ادراجه في الصفحة الواحدة المحدودة.

ولما عرف أبو شادي من السحرتي الوفي ان لي صلة بما أبدته الجريدة من اهتمام بأمره ، كتب الي شاكرا ، ثم اهداني ديوانه « من السماء » الذي اتخذت مناسبة صدوره ذريعة لاقامة هذا الحفل الكبير ، واتصل بيننا البريـد واستمر حتى بعد وفاته ، اذ ان اخر رسائله قد جاءتني بعد رحيله المفاجيء بأيام .

ولا بد من الاقرار هنا بأن صداقتي لابي شادي كانت امتحانا لصبري على خدمة الادب ، او لعلها كانت تحديا لي لكي أوسع دائرة اتصالاتي الادبية في وقت كانت الصحافة تستغرقني استغراقا يجعل الادب على هامش الهامش مــن حياتي ، وأذكر هنا كيف كان أبو شادي يسوقني ســوقا لخوض ميادين لم اتهيأ لها كل التهيؤ .

فذات يوم تلقيت بالبريد فصولا مستلة من دائـرة المعارف الاميركية كتبها استاذنا العلامة الكبير الدكتور فيليب حتي ، ومعها بطاقة منه تنقل الي تحياته . ولما تحريـت الامر ، عرفت ان أبا شادي هو الذي حرض الدكتور حتي على هذه المبادأة الكريمة التي بفضلها نعمت بصداقة هذا المؤرخ العربي العظيم ، اطال الله بقاءه ورد العافية اليه .

وذات يوم تلقيت في البريد كتابا ضخما عنوانه « بعث

جزيرة العرب » لمؤلفه الدكتور جورج خير الله ومعه رسالة من المؤلف – وهو أمريكي من اصل عربي – بأن اترجم له هذا الكتاب من الانكليزية الى العربية لان الدكتور ابا شادي زكاني عنده . وهو كتاب قمت بترجمته فعلا وقدمت نسخته الوحيدة الى مؤلفه الذي توفي قبل نشره ، ولم أعد ادري مصير هذه الترجمة .

وفي يوم اخر زارني استاذ أزهري قائلا ان الدكتور ابا شادي وجهه لكي ينشيء صلة بي ، وكان هذا الاستاذ شيخنا العالم الكبير محمد عبد المنعم خفاجي الذي ما انفك يغدق علي من اخوته ووفائه وعلمه وبره ماأذكره بالشكر له والعرفان لصاحب اليد الطولى في هذا الوداد ، عنيت الدكتور ابا شادي .

وزارني كذلك مدرس أديب قائلا ان أبا شادي دله على عنواني ، فانعقدت بيني وبين رضوان ابراهيم صلة من المودات والاخوات اعتز بها ما حييت .

وتلقيت في البريد نسخة من جريدة « الهدى النيويوركية لصاحبيها نعوم وسلوم مكرزل، فاذا ابو شادي قد كتب فيها صفحة كاملة عني ، حاشرا اياي في سلسلة بدأها بمكرم عبيد باشا ، وثناها بسلامه موسى .

وجاءتني مجلة اميركية عنوانها « شؤون الشرق الاوسط » فبحثت عن مصدرها ، ولم يكن مصدرها الا الدكتور الزكي ، الذي لم يلبث ان كتب فيها باللغةالانكليزية فصلا مسهبا عن الادب المصري المعاصر – كان محاضرة ملقاة في جامعة برنستن – وقد خصني في هذا الفصل بعبارة سخية .

وتلقيت رسالة من « معهد اسيا » في نيويورك ينهي الي نبأ تعييني عضوا فخريا فيه ، ولما استقصيت الامر ، تبينت ان الدكتور أبا شادي هو المزكي ، بل المحرض ، على هذا الفصل الجديد .

وفي عام ١٩٥٢ تعرضت لانكشاريات جائرة أحوجتني الى ان أتبين عدوي من صديقي ، فكان شعر الدكتور ابي شادي من اكبر اسباب عزائي ، اذ وجه الي قصيدة عنوانها « الاخطبوط » قال في ختامها :

مجد البلاد على المدى احرارها ... الماهدون الرائدون عصورا
الملهمون بفكرهم تحريرها ... والخالقون لها منى وشعورا
فاذا اهينوا او اذيل تراثهم ... لم يحمي مجد بعدهم مذكورا
بل لطخت صحف الفخار بوصمة ... تبقى ، ويحسبها الزمان فجورا

وهي قصيدة ادرجهاالخفاجي في كتابه « رائد الشعر الحديث » .

وذات يوم تلقيت رسالة من الرابطة الدولية لحقوق الانسان في نيويورك تختارني مراسلا لها في مصر ، فاستفسرت منها كيف عرفت اسمي وعنواني ، فجاء الجواب : من الدكتور أبي شادي .

واكثر ما امتحن به أبو شادي صبري على الادب ، هو نهمه الغريب للكتب . فقد كانت رسائله الي مكتظة بأسماء الكتب التي يشير علي بقراءتها ، وبأسماء الكتب التي يرجوني موافاته بها . والكتب التي هو طالبها تعالج جميع فروع المعرفة في القديم والحديث : كتب تراث وكتب دين وكتب ادب ، ودواوين شعر ، ودراسات نقدية ، وكتب في العلوم ، وكتب في الفنون ومعاجم لغات ومصطلحات ، وكتب تاريخ وسير ...... وكنت أوافيه كل يوم بحزمة من الكتب تزن كيلوغرامين ، وهوالحد الاقصى المسموح به لشحن الكتب بالبريد ، لا اتخلف عن ذلك الا يوم الجمعة بسبب عطلة البريد . وقد ارسلت اليه مئات من الكتب لم يهمل منها كتابا واحدا ، بل عكف عليها دارسا وباحثا ، واستخرج منها مادة لمحاضراته او فصوله النقدية او بحوثه التاريخية .

واذكر بهذه المناسبة انه لما صدر كتاب الدكتور محمد احمد خلف الله حول الفن القصصي ، قامت من حوله ضجة كبرى في الصحف والدوريات ، وانتقل الامر الى دور التقاضي ، حيث وجد القاضي نفسه تلقاء قضية ادبية عسير البت فيها . وكان الدكتور ابو شادي قد قرأ هذا الكتاب ، وأعد عنه دراسة منصفة نشرتها مجلة «المقتطف» فقدم الدكتور خلف الله نسخة من المجلة الى المحكمة قائلا ان رأي ابي شادي رأي رجل محايد يعيش في مهجر بعيد . فلما قرأ القاضي مقالة ابي شادي أصدر حكمه في الدعوى وهو مطمئن الى سلامته .

وعندما قرر الدكتور ابو شادي الهجرة الى الولايات المتحدة الاميركية في أعقاب الحرب الكونية الثانية فرارا من الجو السام الذي كان يحيط به في عمله الجامعي (فقد كان وكيلالكلية الطببجامعة الاسكندريةواستاذا للباثولوجيا فيها) ، لم يجد على السفن المبحرة وتذاك مكانا لنقل مكتبته الخاصة التي كانت تضم آلافا من المجلدات . فقام بتعبئتها في صناديق وتركها امانة لدى احدى شركات الشحن ، وهذه خزنتها في مستودعات الميناء (البوندد) ريثما يستطاع تصديرها . وسافرأبو شادي ظانا بان مكتبته الخاصة لن تلبث ان تلحق به . ومضت سنة بعد اخرى وثالثة ورابعة وخامسة ، والكتب جاثمة في صناديقها ، واجراءات الشحن لا تتم ، وأبو شادي يكاد يتمزق حزنا على « راس ماله » الذي يستعين به فيأغراضه الادبية والعلمية المختلفة في ديار هجرته .

ولما أعيته الحيلة ، رجاني ان اتصل بشركات الشحن في الاسكندرية لاستعجال الاجراءات وموافاته بالكتب في اول باخرة . فقالت لي الشركات الشاحنة ان تصدير الكتب محال ، لان لهذه الكتب قيمة مادية قد تقدر بالالوف واخراجها من مصر هو والتهريب سواء ! وحاولت اقناع الشاحنين بان هذه الكتب تمثل في حقيقتها أمتعة شخصية لصاحبها ، وهي ذات صفة خصوصية وليست لها صفة تجارية ، وأنها ينبغي ان تعامل معاملة الاثاث الشخصي الذي ينقله المهاجر معه عند سفره . ولكن كلامي كان يقع على آذان صماء . فعند رجال الجمارك يستوي البصل

والكتاب ، وما دام البصل يحتاج الى اذن تصدير والى ضمانة بنك والى استمارة رقم كذا وقسيمة رقم كيت، فهذا النظام نفسه سار على الكتاب .

واستنجدت بوكيل وزارة المالية المرحوم الدكتور محمدتوفيق يونس بك (وهو من اعاظم الرجال علما وخلقا وفضلا) وكان يعرفني معرفة شخصية ، وقلت له في خطاب شخصي ان ابا شادي يقوم بمفرده وبغير مساعدة من جهة رسمية بدعاية للادب العربي والقضايا العربية والفكر العربي في جامعات امريكا ومنتدياتها وصحفها ومجلاتها دون ان يتقاضى على ذلك مليما واحدا من خزانة الدولة . فكيف نضن عليه بمكتبته الخاصة التي يستعين بها في اعداد محاضراته ودراساته وبحوثه للتعريف بالعرب في العالم الجديد ؟ ومكتبته الخاصة مخزونة الان في مستودعات الميناء عرضة لعوامل البلى من رطوبة وأرضة وهوام وعبث. فهل هذا يرضيك ؟

وبادر الدكتور يونس باصدار اوامره بشحن الكتب فورا وبغير اجراءات بعد عرضها على الرقيب ! وجاء الرقيب الهمام ، فقلنا له : هيا ، اشرع في قراءة عشرين الف مجلد لتوافق على شحنها !وطبعا اجاز شحنها دون ان يقرأ صفحة واحدة منها اويفتح صندوقا واحدا . وسافرت الكتب الى صاحبها في نيويورك .

ولا تسل عن فرح ابي شادي بوصول مكتبته اليه ، ولكنه فرح مازجه حزن ممض ، سببه ان قسما من الكتب قد اتلفه ماء المطر طوال سنين ست او سبع ، وان المخطوطة التي كان الدكتورابو شادي يحتفظ بها من ديوان «النزغات» للشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي قد عز العثور عليها بين الكتب ، ورجح ابو شادي فقدها .

وكان الزهاوي في تحرره الفكري يخشى على هذه المخطوطة من اهل التزمت ، فأودعها لدى سلامه موسى الذي خشي بدوره ان تمتد اليها أيدي المفاردين من رجال الشرطة الذين لا ينفكون يغيرون على بيته وكتبه، فأودعها لدى صديقه ابي شادي لتكون في مأمن من العبث .

والى ان انتقل ابو شادي الى رحاب ربه وهو على يقين ان المخطوطة قد فقدت نهائيا ، لانه لم يهتد اليها حين نسق مكبته في نيويورك ، ولا عثر عليها حين انتقل بعد ذلك الى وشنطن واعاد تنسيقها بعد شحنها الى هناك من المقر الذي كان اتخذه لعمله في وسط مدينة نيويورك بشارع لكسنجتن .

اما كيفية العثور على هذه المخطوطة ، ثم نشرها في عام ١٩٦٢ ، فلهذه قصة لا يتسع لها هذا الحديث ، وهي مرجأة الى حين .

واما مكتبة ابي شادي التي كلفته ما كلفته من مال وجهد واتلف بسبب العكوف عليها صحته وبصره ، فقد أهدتها ابنته صفية الى جامعة « يوطا » الامريكية لتحتل خزانة خاصة في القاعة التي اطلق عليها اسم الدكتور عزيز سوريال عطية المؤرخ المشهور في تلك الجامعة .

والحديث عن ابي شادي لا بد ان يفضي الى تساؤل جدي عن تراث ابي شادي . فقبل الهجرة ، لم يكن ابو شادي يجد مشقة في نشر كتبه ، لانه ان لم يجد ناشرا ، تولى النشر لحسابه الخاص وطبع ولو بضع مئات من النسخ أهداها الى اصدقائه . اما بعد الهجرة فقد قابلته مشكلة النشر بفظاظتها . وكان أول ما نشره من كتب في المهجر — وهو كذلك اخر ما نشره — هو ديوانه الموسوم « من السماء » وقد جمعت تبرعات لطبعه ، واهديت منه الف نسخة الى دولة أحمد حلمي باشا رئيس حكومة عموم فلسطين لتباع وترصد حصيلتها للقضية الفلسطينية.وقد اخبرني حلمي باشا انه كان يوفد مندوبين من قبله ومعهم نسخ من الديوان الى الرجال المرموقين في الحياة الاجتماعية واهل السياسة والوطنية ، فلا يشتري احد منهم نسخة. واعتقادي الشخصي ان معظم هذه النسخ الالف تسلل الى الايدي دون بيع ، وقد صادفت على سور حديقة الازبكية الشهير بعض هذه النسخ مزجاة امام الماكسين.

وطبعت له دار « المقتطف » كتابين صغيرين هما الجزءان الاول والثاني من تمثيليات عنوانها « من نافذة التاريخ » ، كما طبعت له دار المعارف في سلسلة « اقرأ » كتابا عن مملكة العذاري أي النحل خرج مليئا بالاغاليط .

ونشر اخونا رضوان ابراهيم ثلاثة كتب لابي شادي ، كما صدرت عن دور النشر في مصر ولبنان كتب اخرى قليلة.

وهناك اربعة دواوين مهجرية هي حصيلة سنوات الهجرة وقد اوصى ابو شادي بتأليف لجنة من اصفيائه من اعضائها الصيرفي والسحرتي والخفاجي ورضوان وكاتب هذه السطور للاشراف على نشر هذه الدواوين وسائر آثاره ، ولكن لجنتنا الموقرة تملك الوفاء والذوق الادبي والامانة ، ولكنها لا تملك مطبعة ولا لها دالة على ناشر ولا قبل لها بشراء الورق بأسعار أسواقه السوداء الهمجية والبيضاء الوحشية !

ولكنني سمعت من الاخت العزيزة صفية ابي شادي القيمة على تراث ابيها ان هذه الدواوين قد تكفلت بنشرها دار لبنانية باشراف صديقنا العتيق الدكتور محمد يوسف نجم ، ولعلها تصدر قريبا ، فخير البر عاجله .

على ان هناك مقالات ودراسات ومحاضرات وفصولا تعد بالمئات تركها ابو شادي ، وكان المأمول نشرها في كتاب متعدد الاجزاء عنوانه « الكشكول » ، وعند صفية مجموعة كبيرة من هذه الفصول ، ولا بد من اخراجها بعد ان انقضت عشرون سنة على وفاة أبي شادي دون ان ترى النور .

وقد قيل في ابي شادي كلام كثير لم يخل بعضه من تحامل او من مجاملة ، على شطط في الحالين ، ولكن المؤكد ان هذا الاديب العظيم قد استطاع بحيويته النادرة وتحركه الاجتماعي الدائب ان يخلق نهضة أدبية في كل دائرة يحل فيها . كما انه كان ، بتواضعه الاصيل ، ينسب الفضل الى سواه . فرئيس ابولو هو الشاعر شوقي ومن بعده الشاعر خليل مطران . ورئيس جماعة منيرفا هو نعمه الحاج .

ولئن كنت واحدا من عشرات شملهم ابو شادي بفضله ، فلا أقل من ان اذكر له هذه الايادي بعرفان واجلال وحب .

القاهرة **وديع فلسطين**

براعم الفجر

من وحي ماساة لبنـــان

الى اطفال القرن الواحد والعشرين

●

يـــا صغاري لا تنظروا للـــــوراء ... نحـن جيـل الحضارة الحمراء
نحن جيل الفنــاء نبني على الرمل ... فيهـوي البنـاء اثر البنـــــاء
نـدعي العلـم ، وهو منا بــريء ... اي عـــلم يـدعو الى البغضاء
وطنياتنـــا معـــارض هــــرج ... وبطـولاتنــا مـــلاقي هراء
قـد زرعنا طريقنـــا بالضحايا ... وكتبنــــا تاريخنــــا بالدمـاء
لا تعيروا اسمـــاعكم لدعاوانا ... فــانـا نعيـش في الظلمـــاء
اقعدتنـا الاوهـام ، وهي سجون ... كيف يســعى مصفـد للعـلاء
الجـدار الذي يحـدد جيلينا ... ارفعـوه ارفعـوه للجـوزاء
هــل سمعتـم بمـــا نسميـه دينا ... جـل عمـا يشـوبه من ريـاء
قـد مسخنــاه بـدعة وضلالا ... وحجبنــاه خلف الف غشـــاء
هـــل سمعتم بمـا نسميه حقا ... تلـك اضحوكة على الضعفــاء
صـاحب الحق من يصـول باظفار ... اذا لاذ خصمـه بالرجـــاء
في قواميســـنا كـلام كثيـر ... انتـم عنـه في اشـد الفنــاء
اطرحـوه للنار ، فهـو بــلاء ... لا تعـش بينكـم دواعـي البلاء
نحن نؤنـا بالحقد جسما وروحا ... فاجعلوا الحـب دربكم للسماء
لا تتيهـوا بعـدة وسـلاح ... لا تـداوى اسباب داء بـداء
جبل النـاس من تراب ومــاء ... فلمـاذا غـرور ذي خيـــلاء
ان من ينتمـي لهـي بـن بـي ... مثـل من ينتمي «لماء السماء»
اي فـرق مـا بين عبـد ومـولى ... كلنـا يـا بني من حـواء
لم يخيـر في خلقـه آدمـي ... يـرحم اللـه شاعر الصحراء

يا صغـاري الا اكسروا ما اخترعنا ... من قيـود ثقيـلة نكـراء
من حدود تقـول للشمس غيبي ... عن فضـاء ، واشرقي في فضاء
من خـرافـات دعـوة لخصام ... وسخـافـات غضبـة لنداء
من نظـام يشـل حرية الفرد ... وفـوضى تبيح كل اعتداء
تفتـح الارض للجميع ذراعيهـا ... فبـادوا سخاءهـا بسخـاء
لا يكـن بعضكـم لبعض عـدوا ... كيف تحـلو الحيـاة للاعـداء
غربـت شمسنـا وئيـدا ولاحت ... شمسكـم في غـلالة من ضيـاء
فاحـذروا يـا براعم الفجر ان ... تجنـي عليكم جرائـم الآباء
نحن ليل مضى...فطيبوا صباحا ... وانظـروا للامام ، لا للوراء

بوانس ايرس ــ الارجنتين

زكي قنصل

انور الجندي

شاعر اللون والضوء والظلال

بقلم اسماعيل عامود

***

مثل ورقة عنب ، راقصة ، فوق دالية غريبة الانساغ ، شابة ، وارفة على مشارف تلعات منداة بالعبير الربيعي المشحون بالانفعالات المبكرة .. تقرأ أشعار « أنور — علي — الجندي » هذا الشاعر الذي يعيش اليوم في « سلمية » المدينة الصغيرة المتواضعة ، النامية ، على حافة بادية الشام — الشمالية الغربية .. المدينة التي كانت بمثابة كوخ راحة واستجمام لـ « ديك الجن » واستراحة عبور لـ « المتنبي » ، ومجمع أحداث عربية ظافرة وحاسمة في بعض جوانب التاريخ القديم ...

وكمثل لوحة هادئة ، صبيغة باللون والضوء والظل، مفعمة باليقظات ، تبدو لك قصائد هذا الشاعر ، ولكن ضمن اطارات رمادية تشوبها مسحة مساءات فيها خيوط حزينة ، وغربة ، وذهاب .. لعلها آمال الشاعر نفسه التي لم تتحقق ، او لعلها طموحاته التي لم تساعد الظروف البيئية او الطبعية او الطقسية — المناخ الانساني ، للوصول الى سفوحها او قطف بعض ثمارها ، لا ندري ..

هضاب١ الهوى والانس هل تذكر الربى غـداة استفاقت والضحى يتنهد
والخصلة الشقراء وهج خميلة يمر بها القلب اللجوج فيبرد
هنيهات لهو بددتها يد النوى وما كان عهدي بالشباب يبدد
كأني لم .... هنالك ... ولم يك لي في صدر بيروت مورد

غربتي ، غربة الازاهر في البيداء ، جفت عطورهن ملالا
و غربتي ، غربة سوداء قاتمة كالليل تقطر آلاما واشجانا

حبيبي(٢) أوما الفجر وهش النور والزهر
فهات العود يا عود وهات العطر يا عطر
اذا فكرت في ماضيك طاش العقل والفكر

فاذا ما رجعنا القهقرى الى الثلاثينات والاربعينات من هذا القرن ، وقلبنا صفحات المجلات الادبية ، سوف لن تمر بنا واحدة منها الا ونجد قصيدة او قصيدتين فيها للشاعر انور الجندي ، حتى أن مجلة « اصداء » الاسبوعية الادبية التي كانت تصدر في دمشق بعد « الصباح » الادبي وتوقفت عام ١٩٤٦ نشرت نبأ أدبيا مفاده (٣) : أن استفتاء قامت به المجلة ظهر لها بنتيجته ان انور الجندي الشاعر السوري الرقيق ، هو اكثر الشعراء انتاجا ، وان انق المجلات الادبية في الوطن العربي وأغزرها مادة هي مجلة « الاديب » لمنشئها الشاعر الاستاذ البير اديب ، وان اكثر أدباء المقالة والقصة انتاجا هو الاديب العراقي المعروف عبد المجيد لطفي ..

اذن ، أين ذهبت اعمال الشاعر أنور ؟ ولماذا لم يوف النقاد حقه من الدراسة والتحليل والتقييم ..؟

لقد لجأ النقاد عندنا — اليوم — الى تجاوز الكثير من الاعمال الشعرية والادبية والفكرية ، بل وتعمدوا اهمال نتاج مراحل عديدة ربما كانت تفيدهم في وضع مرتكزات (محلية) سليمة وواضحة وجادة لما يكتبونه في هذه الايام الراهنة في مجال النقد والتأريخ الادبيين ، بدلا من ان يغوصوا في العتمة او يدخلوا في دهاليز نهايتها غير معروفة حتى الان ، ذلك لان التزام الناقد بتسلسل المراحل وما حظي به ممثلوها في حياتهم من تأثرات ، وما مر بهم من أحداث وما تمثلوه هم من ثقافات رافدة ، له قيمته العليا في التدوينات النقدية ، ناهيك عن صحته التأريخية ، وصدق التقييم وتجرده ...

لهذا ، كان لا بد لحاملي القلم الناقد — عندنا — من التنقيب عن آثار جميع الشعراء ، او الكتاب ، مرحلة اثر مرحلة ، حتى يكون الانتقال بمواضيع النقد الى وضعنا الراهن وفيا ، فيه الروية والاخلاص ..

فالشاعر أنور الجندي لم يمر بانتاجه الشعري عبر أواخر الثلاثينات والاربعينات وحتى الخمسينات دون ان يترك أثرا ما ، او بكلمة ثانية ، دون جدوى .. بل كان لشعره لونا جديدا وايقاعا متميزا ، وصوتا منفردا بين شعراء جيله . حتى انه كان يعتبر من المجددين في صياغة البيت الشعري العربي وسبك القصيدة ذات الموضوع الواحد المنفرد ، وكذلك كان من الذين احدثوا في الصورة الشعرية التقليدية ظلالا وأمداءحديثة ، وادخلوا بين تلافيف البيت الشعري موسيقا عذبة ، رخية ، وقدرة لفظية على اثارة الاحساس والانسجام بين التأليف والمجاورة ، وبين ما يفيضه ذلك الاحساس والانسجام من اضواء وصورطليقة رخواطر رفافة تبعث بموسيقاها السيالة الاتساق في النفوس وأضفوا على جو القصيدة ضياءات هادئة تسطع عبر تأملات شقراء ، وأشاعوا بين بتلاتها كهربائية العصر ، من دفء ملائم منسجم ، وطاقة ايحائية بارعة ، وقدرة متطورة ذكية ، مع ابقاء الاتصال بالاصالة العربية :

احبك يا زهر الصبايا ، وبكرة هي الامل المراح لونه شعري
احبك انت الروض في همساته نعيم من الآباد يعبق بالسحر
احبك يا طيب الورود ، ندية ويا حمرة الذكرى ويا حلم الفجر

جرت يا حلو ، وهل يرحم حلو(٤)
هكذا الدنيا تباريح وصفو
انا من بعدك للالام نضو
فكأني في نيوب الليث شلو

اذكر الماضي ، فابكي ،
أترى دمعي منك ؟

أنا يا حلـو على عهدك باقي
صنت ذكراك فهل صنت اشتياقي
كلما لاحت مناديل الفراق
هتف المحزون يا يوم التلاقي

فيعي الليل السؤالا
ويقـول الفجر .. لا .. لا

على حواشي افقك المخملي — طيوف افراح وحلم طلي
احسه وهما فيا للمنى — ويا لهذا الجامح المعول
هامت به الالام مجنونة — فما خلا منها ، وكان الخلي
واي قلب لم يذق لوعة — ولم يضق بالبارد السلسل
حزني عليها حزن معشوقة — ولت وفي الاحناء شوق جلي
وداعها كان على غفلة — وطرفها النديان لم يغفل(٥)

لقد كانت الحياة العامة في سورية قد أخذت بأسباب النهضة الحديثة منذ عهد قريب .. فأقبلت على تجديد شتى مرافقها بحذر وبطء ، وتطلعت الى مذاهب الغرب بوجل وأناة ، وما تكاد تخطو الى الامام حتى تتلفت الى الماضي ، تحرص على خطوطه الكبرى ، وتحاول ان تساوق انغامه مع الانغام الواردة اليها من بعيد .. ووضع سورية بين البادية والبحر ، يدعوها الى ان تقبس من الحياة المجاورة بقدر .. فمن هنا كانت نهضتها الفنية كنهضتها العلمية ، ونهضتها الاجتماعية ، تسير وئيدا لا يخلو سيرها من المحافظة على أوضاع موروثة ، والتطلع الى أوضاع لا بد آتية والشعر عنوان بارز من عناوين النهضة الفنية في سورية الحديثة ؛ فهو ان كان رغب ـ اي الشعر ـ في التجديد والحرية مرة ، فلقد رغب في المحافظة على سنن السلف مرات ، وهو وان كان اصطنع الثورة حينا ، فلقد كان يخلد الى مواصفات الماضي أحيانا ، والشعر السوري كان يجري في حدود الرومانتيكية العربية من حيث حرصه على هتافات النفس الواعية ، واستجابته للفرح والاسى والذكرى وما الى هذا من أهواء واضحة ظاهرة .. ولكن ثمة طائفة مجددة من الشباب الشاعر تحاول ان تشق طريقها في زحمة الناس لتساهم في حمل مشعل الادب الحديث على أساس مواهبهم ، وأساس من دراستهم للاداب الاوروبية والعربية والروسية والامريكية أيضا (٦)

وكان يتنازع الادب والادباء في هذه الاونة « تياران عنيفان يتصارعان أعنف صراع ، الاول تيار المحافظة على القديم ، ويمثله الادباء والشيوخ ، والاخر تيار التقدمية ويمثله فريق من الشبان الذين فهموا رسالة الادب على حقيقتها فراحوا يتذمرون من وضع الادب الحاضر ، وينقمون أشد النقمة على الادب القديم الذي لا يمثل في نظرهم سوى أدب لا يتصل بالحياة الجديدة المعاصرة ولا يصور ما يضطرب فيها من فضيلة ورذيلة ، ولا يصور عادات من حولهم ، ولا يستمد من الواقع صورة ولا مشهدا » (٧)

ـ فاين كان يقف أنور الجندي من هؤلاء واولئك ، وهو الشاب المتطور .. واين هو مكانه من النهضة الفنية تلك ؟ وما هو أساس موهبته وأساس دراساته ؟

اعرف أنور الجندي ، من مواليد ١٩١٧ ، تلقى علومه في مدارس التجهيز الرسمية والخاصة في سورية ، وبخاصة في مدينة حمص القريبة من بلدته سلمية ، ونهل من الادب العربي حتى الروية ، واستقى من اللغة الفرنسية وآدابها بكفاية ، الى جانب انه انحدر وترعرع وشب في وسط متعلم ومثقف وواع ..

ففي اواخر الثلاثينات ، بدأ ينشر شعره الجديد في مجلة « المكشوف » ومجلة « الامالي » للدكتور المرحوم محمد خير النويري .. شعره المتليء حيوية وشبابا ، كانت الدفقة الشعرية لديه ، دفقة ينبوع انبثق لتوه ، صافيا رقراقا عذبا منسربا في سعاب قفراء لتعشوشب الجنبات ..

كان طلقا ، سعيدا رفافا ، رفيف التأملات الخاطفة على هوامش الصور العابرة ، ذو ايقاع نفاذ يساير خطرات النفس الفنائية ، عفويا ، كما لو كان يخرج دفعة واحدة غير كؤود .. وكان لا يحيطه اي مذهب .. كان مزيجا ، ولكن لا يبرز تأثره « بالتطور الذي أصاب النهضة الادبية على اثر التفاعل مع الغرب ، وبخاصة الفرنسي منه ، وانشاء المدارس والكليات وتوفر الترجمات التي توسعت آفاقها بحيث دخلت في الشعر العربي في سورية ولبنان خاصة ولكنها لم تك لتلائم بعد بين قوالبها وتقاليدها ونفسيتها من جهة ، وبين طرقه هو ـ اي الشعر العربي عامة ـ وتقليده ونفسيته وعاداته من جهة ثانية ، ذلك لان معظم الشعراء ـ ومنهم أنور الجندي ـ لم يعيشوا هذه الترجمات وتلك الاحوال كما يجب » (٨) ..

بيد ان الجندي ـ مع بعض شعراء البلاد ـ قد سجل تطورا عاما الى حد يكاد يكون مقبولا ، وقد افاد مرة ان علاقته بالشعر الفرنسي علاقة عضوية ، وتأثره بشعراء فرنسيين مثل (الفريد دوفيني ، وشاتوبريان ، ولامارتين ، وتأثر بعمق بالشاعر الانكليزي بايرون عن طريق الترجمة الفرنسية) أما تحديد سوية الشعر عنده ، فلا يمكن سبرها الا اذا وضعنا في انتباهنا وقت دخوله دائرة الابداع وزمن مجاوراته للوثبات الادبية الكبرى في العالم المتحرر المتقدم ، مثله ، مثل غيره من شعراء الوطن في ذياك الزمن ..

ولا اخال ان الجندي ـ أنور قد قصر عن هذا الهدف فهو الذي عاصر الحركة الادبية في سنين الانتداب ، وتلقى العلم في مدارس البلاد الخاصة والرسمية ، ودرس اللغة الفرنسية ، واستوعب فنونها ـ او بعض فنونها ـ فلونت شعره ببعض الوانها الهادئة ، لذا فقد نعثر بين اعطاف شعره وطياته النفسية والروحية على اصباغات ناعمة من تلك الالوان التي لا بد من الاعتراف بها ، والركون اليها لانها تلوينات حضارية لا ينكرها النقد ، ولا يمجها التذوق الجمالي في اية مرحلة من مراحل الانتقال من حال قديمة الى حال حديثة ومعاصرة ..

ولكن يظل الشاعر المبدع في تجاوز مستمر من أجل احداث او خلق عالمه الخاص المتميز .. من هنا يصح لنا ان

الطالع او الوجه ، بل هو الروح ومظاهر النفس ، الرؤية نقول : ان الشاعر أنور قد حلق بشعره وادخله دائرة الوعي والابداع فيما يتعلق بمرحلته الشعرية التي عايشها وتعايش معها في اواخر الاربعينات وأوائل الخمسينات من هذا القرن المتطور السريع .

اما متى نضج الشعر عنده ، فهذا لا يمكن تحديده ، ذلك لان الشعر يظل في سيرته الطويلة الحياتية يتجدد، بل يظل طفلا يترعرع في كنف الاحداث والتجارب ، مدللا ، تحدوه الانفتاحات وتزخمه الرؤى تلو الرؤى ، ما دامت النبضات في الدم ..

لنحترق الان ، حان الرجوع الى الارض قبل الغروب
وما دمت أشعر ، ان الحياة ظلام يخيم فوق الدروب
غدا تستفيق جفون الصباح ، وقلبي وانت تراتيلها
وتنتقض الاه والتمتمات ، وتسخر منا تهاويلها
وفي مقلتيك
وفي شفتيك
حنين يهدهد روح الغريب
فتهمي عليك تهاويلها
لنحترق الان ، حسبي حسبك من عالم جاحد ماكر
تشدق بالنور وهو الظلام ، يلوح على شدقه الساخر
ايكذب، والجرح غور عميق ، ومسراه في القلب لا يستتر
أيكذب ، والدم ملء الحياة، يكاد يلملم وجه القمر
وينكأ جرحا
ويغمر صبحا
جلته المقادير للشاعر
وها هو يلهث بين الحفر..(٩)

بعينيك من دنيا شبابي بقية ... منورة الاحلام ، ناعمة العطر
أهدهدها والليل حيران تائه ... وهينمة اللذات تجهش في ثغري
والمتع الشقراء وهج مفوف ... تثاءب محموما على متع شقر
بقية احلامي وفي القلب شهقة ... أيرضيك هذا الحزن يعبث في صدري
اناديك والدنيا سراب مموج ... وادعوك والالام تهزج في شعري
أكنت لهذا القلب الا علالة ... من اللهو ما زالت تدندن في سري
أسائل عنك الليل والفجر والضحى ... وأوقظ افراحي ، فتهتف، لا ادري
اضعتك من جفني حلما ملونا ... وعدت الى مغناي انعم بالهجر(١٠)

لقد وعى الشاعر أنور الجندي جيله ، وهو في بداءات انفتاحه على الحضارة العلمية الحديثة ، وأدرك مجتمعه ، وهو في ريعان تطلعه على كل جديد وافد ، او منبثق من ضمير الامة ووجدانها ، فكان له الميدان الخصب ، والمرج الواسع النضر ، يرتع فيهما ويسجل أشعاره ـ الكثيرة المتعددة المواضيع ـ الوجدانية والعاطفية والوطنية ، بفرح وتألق ، ضمن نزعة انسانية ، ومتحررة ، تدفعه فنية جمالية صوب الاعذب والاحلى ـ يضيق المجال هنا ذكر جوانب من انتاجه المتعدد ـ وما كادت تحل سنوات الاربعينات حتى نجد انعطافا جذريا في تدويناته الشعرية دون ان يخل بمبادىء الشعر العربي المعروفة من الناحية الشكلية ، اما المضمون فقد أضفى عليه من ارادته الوثابة ، وفكره الناضج صورا ذات مدلولات حديثة ، والبسه من خياله الطلق انسجة ذات ابتكارات جيدة ، بحيث قراءتك لشعره تمنحك اللحظات السعيدة بين التسامي والطموح بين العذوبة والفرج وتأملاتك له تعطيك الهنيهات الحائرة بين الحزن والغربة ، بين الحنين واللقاء ... بيد انك لو سألت الشاعر نفسه عن سبب هذا التواتر ، لاجابك ، انه وان كان الفرح يلف وجوده والتفاؤل يكلل جراءه ، الا انه يشعر في قراره بغربة الوجود:

غربتي ، غربة الازاهر في البيداء ... جفت عطورهن ملالا
أسائل عنك الليل والفجر والضحى ... وأوقظ افراحي فتهف لا ادري

والحب نفسه غربة الانسان في شعاب الحياة ، حتى في غزليات أنور ـ وهي كثيرة ـ تشعر معه بمسحة حزينة ـ والحزن ظاهرة موجودة في الشعر العربي على مدى عصوره ومناحيه ـ لعلها كآبة أحوال البشر العامة التي لا جدوى من الانفكاك منها ما دام الانسان هو انسان له بدايته ونهايته وعلى التسلسل ... والشعر لا بد من ان يحمل في طواياه هذه المسحة الحزينة لانه خارج من الروح ـ الانسان، يعتني بها ويستغرق في معدنها الاخاذ ..

ان أنور ، من اولئك الذين فتق شعورهم الالم الانساني الحزن الانساني ، الجمال الانساني ، فهو وان يكن مترفا في تعابيره وأدواته الشعرية ، فانه كثير الايجابية تجاه احواله الحياتية ، انه يعتقد ان اية صورة شعرية لا يمكن لها ان تنمو او تتم الا بفعل الجمال وتأثيره ، لان الجمال لا يتجزء ، وان كان يبدو نسبيا في بعض الاشياء ، غير ان الكمال يأتي منه، بل هو خدينه الاوحد ، والجمال الذي يعنيه ليس حسن

---

(١) ـ من قصيدة «الى لبنان» نشرتها مجلة الصباح الادبي عام ١٩٤٣ ـ دمشق .

(٢) ـ من قصيدة نشرتها مجلة الصباح الادبي عام ١٩٤٣ـ دمشق.

(٣) ـ مجلة اصداء ـ العدد ٢١ الصادر بتاريخ ٢١ـ٦ـ١٩٤٥ـ دمشق .

(٤) ـ من قصيدة طويلة نشرتها مجلة العرفان عام ١٩٤٣ ـ صيدا

(٥) ـ من قصيدة بعنوان « أفق » نشرتها مجلة الاديب ـ نوار ١٩٤٣ ـ بيروت .

(٦) ـ من مقالة « الشعر في مهرجان (ابي العلاء المعري) الالفي» «للمرحوم الاستاذ محمد روحي فيصل » نشر في مجلة اصداء ـ العدد ٨ تاريخ ٢٢ ـ ٢ ـ ١٩٤٥ ـ دمشق .

(٧) ـ الحياة الادبية في الشام ـ مجلة الاديب ـ العدد ١١ السنة الثانية عام ١٩٤٣ للاستاذ عبد الغني العطري .

(٨) ـ من مقالة للكاتب نشرت في المجلة العسكرية السورية عام ١٩٦٥ عن الشعر ما بين الحربين العالميتين.

(٩) ـ من قصيدة طويلة بعنوان (لنحترق) نشرتها مجلة الاديب عام ١٩٥٠ ـ العدد ٣ مارس ـ مهداة الى الشاعرة نازك الملائكة .

(١٠) ـ من قصيدة نشرتها مجلة «النواعير» عام ١٩٤٥ ـ عدد اذار ـ ٦ ـ في حماه .

(١١) ـ توفي ابراهيم طوقان وشيع جثمانه في ٣ ايار عام ١٩٤١.

(١٢) ـ من كتاب «شاعران معاصران » ابراهيم طوقان ، وابو القاسم الشابي ، تاليف عمر فروخ ، دكتور في الفلسفة وعضو المجمع العلمي العربي في دمشق ، وعضو جمعية البحوث الاسلامية في بومباي ـ الكتاب طبعة ١٩٥٤ ـ بيروت .

(١٣) ـ مجلة اصداء ـ العدد الصادر يوم ٢٥ـ١ـ١٩٤٥ـ دمشق.

بعد كل هذا ، تجيء المراة ...

وللمراة في شعر الجندي ـ انور ، المكان العالي ، والمؤكد .. فلا تخلو قصيدة له من ذكرها حتى انه عندما توفي (١١) شاعر فلسطين الكبير « ابراهيم طوقان » ارسل الشاعر انور الى الدكتور محمد خير النويري (توفي عام ١٩٥٢) احد اصحاب مجلة « الامالي » رسالة في اول تشرين الاول عام ١٩٤١ ضمنها قصيدة عنوانها « أحبك » وهبها الى روح ابراهيم ... منها :

احبك انت الليل والشعروالهوى — ووشوشة الاحلام في الفنن النضر
احبك والدنيا بعيني هجعة — معطرة الاشواق طيبة النشر
احبك يا كف الشعاع على الربى — وعينك في عيني وثغرك في ثغري
اضمك من وهج الهوى فكأنني — اضم لذاذات الحياة الى صدري
وتفرق عينانا وللجفن رفة — أرق من الانداء في شفة الزهر (١٢)

وكلمة « أحبك » توحي في شعر أنور بالغزل ، وهذا النداء كان الشاعر الجندي يستسيغه دائما حتى في الفواجع مع ان الكلمة موجهة كليا الى ناحية الحب ، والحب عند انور اول الوجود واخر الوجود بيد انه لم يستهتر بقيم المراة وانوثتها ، ولم يك معها ذلك العاشق العربيد ، او الهاوي الماجن الخليع الضليل ، انما كان معها الشاعر الحق والرسام البارع ، كان انسانا يفتتن بمحاسنها ويتغنى بدنياها الزاخرة ، ويغرد لها في عالم مليء بالحنو واللقاء والمودة .. انه لم يهدف من خلال تعلقه بمفردات المراة في شعره الانتقال من واحدة حبيبة الى واحدة حبيبة ثانية ، وثالثة .. اذ لا نجد في شعره تسميات معينه لكثيرات مثلا وهذا يفسر لنا ان الشاعرغير مبتذل ولامسرف في مشاعره يوزعها هاهنا ، وها هنالك ، بل كان نبيلا يتفرد باسم واحد هو (فوز) ١٣

يا فوز يا حلما شهي الخطى — لم ينتقض للموجع العاثر
دنياك من نور تهاويله — وحي ندي اللمح في خاطري
نمر ذكراه فاحيا بها — او عادت الافراح للذاكر (١٣)

ومن خلال اسم فوز ـ وهي الاثيرة عنده ـ وشفافية صاحبته ـ رأى عالمه الشعري وكشف ابعاده ، وقد تميز تجاه (فوزه) التي رباها مستقلة سليمة من كل تقاليد .. لم ير نفسه (بودليرا) او (بيرونا) او (لامارتينا) .. انه لم يزور خيالاته ولم يتهالك او يرتمي في جحيم الحب حطاما ، لا ، ولم يفسده وجود الثقافة الغربية الى جانبه، بل كان مستقلا .

كانت المطالعة والثقافة عنده شيء ، والشعر شيء اخر ، كان شاعرا لا ناظما ، وكان يكتب عندما تلح عليه الفكرة او الصورة ، ولذا نجد في شعره العفوية والانسراح. صحيح ان المدارس الشعرية الحديثة غيرت الكثير من مفاهيم الشعر ، وان الشعر الحديث اخذ يمس داخلية الاشياء واغوارها ، يكشف حتى عن الانفعالات اللحظية الفردية ، انه لم يعد شعر Fantaisie ومع هذا فان اكثر الشعراء الشبان ـ الفتيان ، في هذه الايام الراهنة اخذوا يدخلون عالم التعنيم بحجة التجديد ، بيد ان شعراء مرحلة انور الجندي وجيله ، كانت مرحلة استكشاف واستطلاع، ورفد وانتقال ، واحيانا كانت مرحلة تبديل .. مع ذلك فان شعره يمكن ان يكون (محطة) بين مرحلتين . مرحلة من عاش في البادية بتفكيره ومشاعره زلفى لاسلافه من الشعراء ، ومرحلة من هجر أرضه ، ونفض جناحيه من ترابها وراح يعيش بتعتيماته جاهدا في سبيل ارضية يحلم ببقائها ..

يظل أنور الجندي محطة ، لان ثمة صراعا مازال قائما بين جيلين او ثلاثة .. اذ ظهر في ـ الاونات الاخيرة الراهنة كلام ، وفتح حوار عن الشعر الحديث والمعاصر ، ايهما اكفأ ، وايهما ملائم او يتلاءم مع روح العصر ومادته ؟ هل الحديث المعاصر الابداعي أو الواقعي او الرمزي ، أم القديم العربي الاتباعي ؟ وهل ان الشعراء ينشدون على هدى من الشعر ، واساس من النفس ، وبصر بالحياة الراهنة ، ام انهم يكتبون الشعر كمدلجين خابطين في الديجور .. ؟

ولكن تعدد نوعيات الشكل والمضمون الظاهرة في التدويناث الشعرية المعاصرة لا تدع الجواب على هذه الاسئلة يعطي صحته .. فالحياة مستمرة ، انها تتطور ، وفي كل يوم يظهر شاعر محدث ... وشاعرنا أنور الجندي وقف في محطته ، وصمت كثيرا .. ولكن المرحلة التي عاشها وتفاعل معها ، جديرة بالانتباه اليها والاعتناء بها ، لانها مرحلة تمخضت عن حركات ومواقف شعرية لا تجيز الامانة الادبية والاخلاقية تركها هكذا .. تضمحل وتفنى مع أوراق الخريف ..

دمشق — اسماعيل عامود

نظمت الشعر

نظمت الشعر لا ابغي نوالا
على شعري ، ولا ارجو مديحا
كفاني أنني لم ارث ميتا
غنيا عاش في الدنيا شحيحا
ولم امسخ من الدجال شهما
واجعل من «مسيلمة» مسيحا
فكم من شاعر قد عاب شعري
ولم اقرأ له بيتا صحيحا
فرب قصيدة ترضيك لكن
يراها كل نقاد فحيحا

عبد اللطيف الخشن — بوانس ايرس

ابن زيدون

شاعر الحب والطبيعة

أقامت وزارة الدولة المغربية المكلفة بالشؤون الثقافية في السادس عشر من شهر تشرين الاول (اكتوبر) مهرجانا الفيا في الرباط للشاعر ابن زيدون ، ودعي شعراء عديدون في الوطن العربي للمساهمة في هذا المهرجان . وكلف وزير الدولة للشؤون الثقافية ، الشاعر مردم بك للاشتراك بالمهرجان ، وهذه قصيدته :

عدنان مردم بك

★

كنت دنيا من الرؤى والاماني … يتجلى اعجازها في البيان
لك شعر على الزمان جديد … وهو في العمر معرق كالزمان
يتغنى بسحره ما ترامت … حقب للعصور ، كل لسان
ويضج السمار في غلس الليل … نشاوى من روعة وافتتان

ان سحرا جلوته ببيان … كشعاع ، هو البعيد الداني
ظنه الفر لم يكن ببعيد … في سمو ورفعة ومكان
واقرت لك الفحول بسبق … حين جاوزت غاية الاتقان
صور الحسن في قصيدك شتى … دون فيء الظلال والالوان
يعبق اللون بالشذا ويشع … اللحن نورا لفتنة الالحان
وجعلت البعيد من كل معنى … منك ادنى من راحة لبنان

اعذب الشعر ما يجود به الدمع … مبينا عن لاعج الاشجان
ضقت بالهجر والصدود فاعربت … وغرب الاشواق من نيران
ووصفت الاشواق تنهش بالصدر … وتفري بمخلب وسنان
عصفت بالعذاب عصف عباب … دونه الليل ضارب بجران
وسبرت النفوس سبر خبير … عن يقين وخبرة وعيان

عالم النفس كالمحيط عجيب … يتلاقى في غمره الضدان
ان نفسا بالامس اثخنها الذل … فاغفضت على اذى وهوان
لتراها غدا تحلق كالنسر … وترقى عسير كل عنان
وفؤاد عليك بالامس اخنى … من رؤوم ، لصبوة وحنان
بات يرميك بالعذاب ويابى … ان يكف الاذى ونو لثوان

ايها الشاعر الذي خضب اللحن … بنفض من النجيع القاني
ان حزنا اشجاك اعقب خيرا … ما توالى على المدى الملوان

يخصب الحزن بالعجيب من الحسن ... وشدو الهزار من احزان
لك في الوصف ما يشوق فريد ... من قصيد ومن معان حسان
لحسبنا الاشجار دونك تهتز ... نشاوى عن مائس فينان
عطفتها يد الصبا في صباح ... عبقري الاصباغ والاردان
وتغنت سواجع من حنين ... ما تغنت، على ذرى الافنان
والصباح الجديد يعصف عن تبر ... ويهمي شعاعه عن جمان
غمر الكون بالجديد من الحسن ... فاغفت من دونه العينان
ويهب النسيم يعثر بالخطو ... حثيثا بحيرة السكران

أين واد حللته في قديم ... كان مرعى جآذر وحسان
قلت فيه العجيب فانتفض الدوح ... وسال الغدير بالعقيان
ونفضت الحياة فيه، فشاع ... الخصب مما نفضت، قبل اوان
وجعلت النسيم يعبث ولهان ... بكف المدله الولهان
كل غصن حكى جناح ذبيح ... لا تراه يكف عن خفقان
والسكون العميق يزخر بالصمت ... وكم في سكونه من معاني
يتجلى جلاله ما ترامت ... لجج للسكون كالكثبان
كم تراءت في دامس من قتام ... وتبدت في وحشة الوديان
لكانا بما وصفت لمسنا ... همسات الضمير لمس بنان
ووقعنا على اللواعج في الصدر ... وغرب الدموع في الاجفان

اهو الشعر ما ادرت ام السحر ... وكنت السباق في الميدان
تصف القلب في نوازع شتى ... من عناد طورا ومن اذعان
عالم القلب لا يحيط به القول ... بعيد الاغوار والقيعان
تتنجى اطباقه عن قتام ... هي والليل غربها سيان
يبلد القلب بالنعيم ويفضي ... مستكينا حذار كل طعان
ان في الراحة الخمول وهيهات ... كريم، يرضى بعيش هوان

أجد القلب كان يخصب بالجرح ... ويسمو بلاعج الاشجان
قسما بالجراح ما أخصب النصر ... بغير الجراح والاضغان
فعلام العتاب انه أوجع الجرح ... وادمى بمقلة، وجنان

ايها الشاعر الذي ملأ الكون ... غناء ولم يضق ببيان
يفعم الكون بالعبير مع الحب ... ويفتر باسما من حنان
وتدور الافلاك تهتز نشوى ... من جلال الخلاق في الدوران
ما اجل الحياة في فتن الفجر ... وعند الغروب في الغدران
أجد الله حيث يممت نورا ... ليس يخفى عن مقلة بمكان
وأراه محبة في ضميري ... ونشيدا شدت به الشفتان

دمشق ... عدنان مردم بك



بقلم عبد الحميد الانشاصي



كنا جالسين تحت شجرة من أشجار المشمش نمرح ونضحك ونتحدث عن اشياء مختلفة . واخيرا استقر حديثنا على موضوع واحد وهو ان يسرد كل منا أشد الحوادث التي مرت في حياته تأثيرا في نفسه. وكانت أغرب حادثة سردت تلك التي حكاها الاستاذ حسن بصوته الهادىء العميق والفاظه البسيطة الصافية المؤثرة. قال :

صدر امر بنقلي مديرا لمدرسة قرية « س » الابتدائية، انني لم ازر تلك القرية من قبل . لذا سألت عددا كبيرا من اصدقائي : كيف أحوال تلك القرية ؟ وهل تصلح لسكناي؟ فأجابني كثيرون منهم انها كثيرة الخيرات والينابيع والبساتين ، وانني سأقضي فيها اياما حافلة بالمسرة والراحة والهناء . وهذا ما طمأن نفسي وحداني على ان احزم امتعة منزلي واسافر اليها انا وافراد أسرتي .

حينما استقر بي المقام في القرية باتخاذي احدى دورها مسكنا لي ولاسرتي ، وبمباشرتي الاشراف على التدريس في مدرستها الابتدائية

ـ رحت أتجول في القرية وحولها .

فبدت لي كثيرة الخيرات والبساتين كما اعلمني اصدقائي ومعارفي . لقد نقلت الى عدة قرى من قبل ودرست في مدارسها ، ولكنني لم أجد بينها قرية واحدة شبيهة بهذه القرية . موقعها جميل مطل على ما حولها من هضاب وأودية . سكانها من الفلاحين وبعض بيوتها بشعة كبيوت غيرها من القرى . ولكن فيها مميزات غريبة : ذلك الجو الغامض الذي يحدق بها . جوها هادىء ولكنه يوحي الى النفس بالتأمل والتفكير كأن أسرارا كامنة في حجارتها وتربتها واشجارها وطيورها . كأن هذه الاشياء تريد ان تبوح الى الزائر الغريب بأسرار وتطلعه على اخبار . لماذا قامت تلك الابنية الشاهقة المدنية الشكل بجانب تلك الابنية البشعة القروية الشكل؟ لماذا بدت هنا طرق واسعة مستقيمة مرصوفة بالحجارة الصلبة الملساء ، وبدت بجانبها طرق ضيقة ملتوية ؟ لماذا بدت هنا حدائق منظمة الاشجار مرتبة الاحواض مسورة بجدران تدل على ذوق سليم في عقلي مهندسها وبانيها ، بجانب حواكير تضم أشجارا يعوزها الترتيب والتسوير ؟ ان سكان قرية « س » من القرويين الفقراء والمتوسطي الحال وليس بينهم مدنيون او قرويون بلغوا درجة رفيعة من الثقافة والغنى الواسع . مرارا فكرت في أمر هذه القرية العجيبة ، ولكن تفكيري لم يهدني الى الحقيقة . ولم اجد بدا من ان أفاتح احد سكانها بهذا الشأن فقلت له :

ـ عجب ! ان دور قريتكم متباينة اذ منها ما هو ممتاز في بنائه وشكله، ومنها ما هو على عكس ذلك . فما السبب ؟

فهز الرجل راسه في تألم واجاب بصوت منخفض حزين :

ـ ان لهذه القرية تاريخا . لقد كانت مدينة عامرة . ولكنني لا اعرف تاريخها بالتفصيل وهي مدينة .

فالقيت على الرجل نظرة استغراب واستطلاع وقلت :

ـ وهي مدينة ؟! وهل كانت في ما مضى مدينة ؟ من الذي يعرفها حينما كانت مدينة ؟

فاجاب بسرعة :

ـ الشيخ عامر ايوب . انه رجل متقدم في السن يعرف عن القرية كل شيء .

التقيت الشيخ عامر أيوب في بيته فوجدته رجلا جليل المظهر هادىء الجسم بسيط الثياب . ولا شيء يدل على انه على شيء من الحيوية سوى عينيه الواسعتين الحركتين . جسمه كله يدل على انه في نحو الثمانين من عمره ما عدا عينيه فانهما توحيان الى الناظر اليه انه في سن الشباب . فاتحته بأمر القرية ، ورجوته ان يطلعني على تاريخها وهي مدينة . فتناول عصا كانت ملقاة بجانبه ، ثم التفت الي قائلا :

ـ هيا نتجول في القرية ساعة يا بني لاتمكن من ان انقل الى ذهنك الصورة التي كانت تبدو فيها القرية وهي مدينة .

فقلت :

ـ تفضل !

مشى بخطى بطيئة يتوكأ على عصاه . وسرت بجانبه على مهل . وكان طول الوقت يثني على تلك الايام السعيدة التي كانت القرية فيها مدينة مزدهرة ومرجعا لكل ما يحيط بها من قرى . وبعد قليل بلغنا بناء شامخا مؤلفا من غرف واسعة نوافذها مزوقة بحجارة ذات نقوش جذابة . وكانت الدرجات التي تؤدي الى بابها الكبير مصنوعة من الرخام . ثم اشار بسبابته المعروقة الجافة قائلا:

ـ هذه الدار كانت محكمة صلح يحتكم فيها الاهالي .

القيت نظرة سارحة على ذلك البناء الشامخ ، فرأيت بعض نوافذه مغلقا بدفات من خشب أبيض رخيص غير مدهون ، وبعضها يلمع فيه زجاج مكسور . وقد تلبد على درجات البناء الرخامية تراب قذر ووحل . وقد لصقت به حجرة بنيت بالطين الممزوج بالقش اعدت مربطا للدواب . وكانت بعض دجاجات تصعد الدرجات تارة

وتهبط عليها اخرى باحثة عن طعام لها . وكانت هناك ثلاث عنزات ترعى في شره كأنها علقات لاصقة بعنق وارمة . وبينما كنت اتأمل البناء قال لي الشيخ عامر :

ـ انها الان دار . تحولت الى دار يقيم فيها مختار القرية .

ثم ابتعدنا عن الدار وواصلنا المسير . وبعد قليل توقف الشيخ عامر قائلا وهو يشير بأصبعه الى الطبقة العليا من عمارة ضخمة :

ـ وهذه الغرف العالية كانت تستعمل من قبل دائرة الزراعة .

أجلت بصري في أعلى العمارة فرايت كومات من القش تدلى بعضها من سطح العمارة ، ورايت لطخات من روث البقر لاصقة ببعض جدرانها المحاطة بزنار من حجارة منقوشة نقشا جميلا . ثم قال الشيخ :

ـ انها الان مسكن لبعض القرويين

ثم تنهد ، وتنهدت انا ايضا . وبعد ذلك قلت :

ـ يا للخسارة !

وبعد مسيرة عشر دقائق وجدنا نفسينا امام بنيان ضخم رائع الهندسه تبين لي ان كل جزء منه بقي على حاله لان حجارته وخشب ابوابه ونوافذه وزجاجه لم تتغير . ولم اسمع صوتا ينبعث من داخل البنيان . وقد نبتت امامه اشجار سامقة من السرو . وكانت درجاته من الرخام المعرق الثمين . وكانت الطيور تتنقل بين الاشجار مغردة مصفقة بأجنحتها . لقد خيل الي انها هي وحدها تقطن في ذلك البنيان . وكانت أشجار السرو تهز رؤوسها في كآبة حينما تهب الرياح عليها . وكان ينبعث منها همس حزين يذكرني بالايام التعسة التي مرت من حياتي . وقد بدا بجانب باب البنيان الواسع عمودان ضخمان من الرخام متوجان بزهرتين كبيرتين من الرخام ايضا كأنهما حارسان قويان يحرسان الموظف الرفيع المقام الذي يقيم فيه ان كان هناك موظف . وقد لاحظت ان الهدوء الذي أحدق بالبنيان لم يجلب اليه وحشة بل اكسبه هيبة ووقارا يكادان يرغمان الزائر على حني رأسه اجلالا .

التفت الي الشيخ عامر قائلا وهو يصوب الي نظرة حالمة سارحة ذاهلة :

ـ ان هذا البنيان كان سرايا للقائمقام حسني القادري .

فقلت :

ـ من هو حسني القادري يا عمي؟

فقال :

ـ سأنبئك بامره فيما بعد يا ولدي ان له قصة طويلة سأسردها عليك حينما نعود الى الدار . هناك نشرب



عبد الحميد الانشاصي

★

القهوة معا واطلعك على الحقيقة المرة . ان هذا البنيان لا يقيم فيه احد . انه مغلق . لقد اغلق منذ تحولت المدينة الى قرية . ستعرف كل شيء فيما بعد

فقلت :

ـ ولكن كيف تحولت المدينة الى قرية ؟ ما السبب ؟

فأجاب :

ـ هذا ما سأنبئك به في داري يا ولدي .

وامعنت النظر في عينيه فرايت في كل منها دمعة حبيسة تترقرق . وسار بي متوغلا في القرية . دخلنا سوقا طويلا مؤلفا من نحو مائة حانوت . وكانت ابوابها مغلقة بالطين . قال الشيخ عامر وهو يشير اليها بعصاه الغليظة :

انظر . هذا سوق باعة الاقمشة . لقد تحول كله الى دور يقيم فيها المزارعون . اغلقت جميع ابواب حوانيته كما ترى . لم يبق الا حانوتان هناك .

ثم عرجنا على سوق اخر للبقالين مؤلف من نحو مئة وخمسين حانوتا مغلقة الابواب بالطين كسوق باعة الاقمشة . وقد علمت ان تلك الحوانيت حولت ايضا الى دور يقيم فيها الفقراء ولم يبق منها الا خمسة حوانيت . وبعد ذلك مررنا في سوق الجزارين وهو مؤلف من خمسة عشر حانوتا ، ولم يبق منها سوى حانوت واحد . اما الباقي فقد تحول الى غرف . وقد رايت بقرات تسير على ارض السوق المرصوفة بالحجارة الصلبة هازة رؤوسها في خيلاء وضاربة الارض باظلافها القوية بلا نظام كأنها افراد جيش مسرح .

ولما خرجنا من السوق ضرب الشيخ كفا بكف ثم تنهد وقال :

ـ وهكذا اختفت تلك المدينة الحبيبة ، وحلت محلها قرية صغيرة .

فقلت متحسرا :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله .

عدنا الى دار الشيخ عامر كأننا عدنا من جنازة . ولما جلسنا في احدى حجرات داره أعد القهوة ، ورحنا نحسوها في ذهول ، بينما كان الشيخ عامر يسرد علي قصة القائمقام حسني القادري . قال :

ـ كان في العهد العثماني شاب مثقف مهذب اسمه حسني القادري . لقد انحدر من اسرة عريقة من أهل المدينة . ونظرا لذكائه وثقافته ودماثة اخلاقه عين قائمقاما هنا . كان مثال الرجل الصالح في تصرفاته مع الناس والقدير في ادارة عمله ، والواسع العقل المخلص في اسداء النصح الى الاهلين . كان يلقي على الزراع محاضرات كلها فكر وفائدة . فأرشدهم

وحداهم على العناية بأراضيهم حتى تحول بعضها الى جنات ذوات أثمار شهية ، وتحول بعضها الى حقـول حافلة بألوان الحبوب الجيدة . وكان يلقي كذلك محاضرات يحث فيهـا الاهالي على الحاق ابنائهم بالمدارس ليتثقفوا ويتعلموا : فتضاعف التلاميذ عددا ، مما حداه على فتح عدة مدارس في المدينة منها الابتدائية والثانوية .
وفضلا عن ذلك فقد كان شاعرا بارعا تغنى بجمال الطبيعة الساحرة الذي أحدق بالمدينة في قصائد رائعـة استظهرها كثيرون من متعلمي المدينة وتناقلها الناس ، وما يزالون يرددونها حتى الان .

ثم التفت الى الشيخ عامر قائلا :

ـ هل انت مصغ يا ولدي ؟

فأجبت :

ـ أجل . اتم . اتم يا عمي . انني مصغ كل الاصغاء .

وواصل حديثه قائلا :

ـ لقد كان حسني بك موضوع الحديث في الاندية والمنازل والقهوات والشوارع والاسواق . وذاع صيته في القرى المجاورة حتى في المدن القريبة كل أحبه واحترمه واستشاره واستنار برايه . كان ابن المدينة البار وابـا الاهالي الرحم . ان الفضل يرجع اليه في كل ما ازدانت به المدينة من تقدم وعمران . ولكن رجلا كهذا لا يسلم من الحساد يا ولدي . واكبر حساده المتصرف ـ المتصرف حسام بك .
لقد آلمه ان يعود الفضل في تقدم المدينة الى حسني بك . اراد ان يكون هـو صاحب الفضل لكي يرتقي الى منصب أعلى من منصبه . ولذا ناصب حسني بك العداء . لقد ابغضه ، وتمنى موته ولا سيما بعد ان سمع ان الاهالـي يشيعون ان حسني بك اولى بلقب متصرف من حسام بك ، وان هـذا اجوف فارغ لا يفهم شيئا . مع ان حسني بك لم يطمح الى ذلك المنصب ولم يسع اليه ابدا .

ثم توقف الشيخ عامر عن الحديث وسرح امامه نظرة طويلة . وبعد ذلك ضرب ركبته ضربة عنيفة وقال :

ـ وهنا المصيبة . هذا هو أصـل البلاء . كان للمتصرف ابنة اسمهـا جميلة ، وكانت على جانب عظيم مـن الحسن . ناصعة البياض ، دعجاء العينين . كانت كالعاج في لونه وقيمته ذكية ومثقفة كحسني بك . ويقـال انها كانت تطالع كثيرا من الكتـب الادبية كحسني بك . كانت تتذوق الشعر والقصص . ويقال ان بعض القصائد التي نظمها حسني بك في جمال الطبيعة قد تسربت الى يديها ، فقراتها في لذة واعجاب . وجميلـة فتاة بكر ، وحسني بك شاب عزب . وقد علمت ان الفتاة كانت تفكر فـي حسني بك ، وانها كانت تشتاق الى رؤيته . ولكن حسني بك لم يكن يفكر فيها . كانت اعمال وظيفته واعماله الخيرية ومطالعاته شاغله الوحيد . وكذلك حسام بك فانه لم يخطر فـي باله ان ابنته وقعت في هوى حسني بك من بعيد .

توقف الشيخ عن السرد وقال :

ـ هل انت منتبه يا ولدي ؟

فأجبت :

ـ كل الانتباه . اتم يا عمي . اتم .

وواصل كلامه قائلا :

ـ في ذات يوم قدم حسام بك هو وزوجته وابنتـه المدينـة بقصد الاصطياف فيها ، فقد منح المتصرف اجازة مدتها ثلاثون يوما لقضائها في بساتين المدينة ترفيها عن نفسه . كان معجبا بموقع مدينتنا ، ولكنه لم يكن معجبا بأهاليها ، فقد ساءه ان يثنـوا على خصمه حسني بك وهو قائمقـام ويؤثرونه عليه وهو متصرف . استأجر المتصرف دارا أنيقة في بستان حافل بألوان الاشجار المثمرة لمدة شهر .
وكان على مقربة من الدار التي يقيم فيها حسني بك . وقد علمت من بعض أصدقائي ان جميلة هي التي اقترحت على أبيها ان يستأجر تلك الدار للاقامة فيها طول مدة الاجازة . وقد استشار المتصرف حسني بك في هذا الشأن فوافقه على استئجار الدار دون ان يدري ان ابنته هي التي اختارتها .

وكان المتصرف يقضي بعض الليالي الساهرة في منزل القائمقام . وكان هذا ايضا يقضي بعض الليالي الساهرة في منزل المتصرف . الا ان حسني بـك لـم يتعـرف بزوجـة حسـام بك وابنته فقد حال الحجاب دون ذلك غير انه لاحظ ان جميلة كانت تصوب اليه نظرات حددتها لوعة الهوى .
وكانت كلما خرجت هي وابوها وامها من داره تتأخر عنهما ثم تلتفت وراءها وتنظر اليه . كانت عيناها باديتين ، فان الحجاب الخفيف الذي القته على وجهها انتهى أعلاه على انفها ولم يستر عينيها . سحرته بعينيها الدعجاوين وبشعرها الاملس الذي ظلل جبينها الابيض بسحب من طرره السود . وقد تعاونت عيناها الفاتنتان وقوامهـا الرشيق وهي تسير ولفتاتها المغرية على اجتذاب قلبه اليها . رأى شيئا جديدا في حياته . انها المرة الاولى التي اهتمت به فيها فتاة هذا الاهتمام وغمرته بحبها وجراتها واغرائهـا .
لم يحل ما بينه وبين ابيها من خصومة دون مبادلتها الحب . لقد اصبحت عزيزة عليه . كل ذرة من جسمهـا نشأت وتكونت في ظلال النعمة والدلال ومن الغذاء الجيد وتحت اللبـاس الناعم . انها ثمينة في كل شيء ـ في نشأتها وثقافتها وذكائها وجمالهـا ودلالها . انها شبيهة بقطعة من الماس . من يعطى قطعة من الماس ويرفضها ؟ قل ، هل يرفض شاب فتاة كهذه ؟

فأجبت :

ـ كلا . كلا بالطبع .

وواصل حديثه قائلا :

ـ وفي ذات ليلة دخلت جميلة دار حسني بك على غير موعد بينهمـا . وحينما نزعت الحجاب عن وجهها ، ورأى حسني بك ما ادخرته له وراءه نسي والدها ولم يفكر في عاقبة جراتها وجراته ، وضمها الى صدره في شوق ملتهب . وتبادل الحبيبان قـبـلات معسولة . وحينما عادت جميلة الـى دارها وجدت أمها يقظة ، فوبختهـا على خروجها من المنزل ليلا . وبعـد

التحقيق معها أدركت ان جميلة خرجت للقاء حبيبها حسني بك . وفي اليوم التالي لمحت لزوجها الى ما بين جميلة وحسني بك من علاقة غرامية ، فسخط على القائمقام وحقد عليه . ضرعت جميلة الى امها ان توافق على الزواج بحبيبها حسني ، وحاولت الام ان تقنع زوجها بذلك، فرفض وقد صمم على الانتقام من حسني بك . وبعد مضي بضعة ايام بدأ اهل المدينة يتهامسون بالعلاقة الغرامية . ومنهم من تهكم ومنهم من سخر . فحقد المتصرف على أهل المدينة أجمعين . واعتزم ان يسعى لدى الوالي لنقل جميع دوائر الحكومة الى مدينة اخرى تبعد عنها نحو ساعتين ، ولتجريد حسني بك من وظيفته .

فقلت للشيخ :

ــ ان المتصرف مجرم .

فقال :

ــ ما في ذلك شك اذ كان في امكانه ان يزوج حسني بك بابنته فيتحول ما بينه وبين القائمقام من عداوة الى صداقة وقرابة .

فقلت :

ــ هذا صحيح . وبعد ذلك ؟

واستمر الشيخ :

ــ وبعد ذلك انتهت الاجازة ، وعاد المتصرف الى مقر عمله . واخيرا صدر امر من الوالي على لسان المتصرف بنقل جميع دوائر المدينة الى مدينة اخرى . فخيم الصمت والكآبة والاستغراب على الاهلين ، واخذوا يتساءلون : ما السبب؟ماذا جرى ؟ وفي خلال اسبوعين تم نقل جميع الدوائر . ولم يكتف المتصرف بذلك بل فصل حسني بك من منصبه وراح يشجع الاغنياء والتجار وذوي المصالح على الرحيل الى المدينة التي نقلت اليها دوائر الحكومة . ولم يبق هنا الا الزراع الذين لا يستطيعون ان يعيشوا بعيدين عن اراضيهم ، والعمال الفقراء الذين تعودوا العمل في تلك الارض . وهكذا خلت المدينة من رؤوس الاموال والطبقة المثقفة المفكرة ومن الموظفين الكبار والصغار ومن التجار على اختلاف مهنهم ومن الصناع على اختلاف صناعاتهم . وبذلك أضحت المدينة مدينة في شكلها . اما في حقيقتها فقد غدت مهجورة راكدة الحركة كأنها مقبرة تضم ضروحا ضخمة يرقد فيها أبطال كانوا قد اكتسبوا مجدا وعزا في حياتهم .

فقلت متألما :

ــ يا لله ! هذا ظلم . كل هذا من اجل فتاة احبت شابا ؟

فقال :

ــ المغرورون والظالمون في الدنيا كثيرون . اما الفتاة فقد حز في نفسها ان تحرم الزواج بحبيبها ، وان يبلغ بأبيها السخط والغضب مبلغا يجرد معه ذلك الحبيب من منصبه الرفيع وان يجرد ايضا مدينة بكاملها من دوائرها وعزها ومجدها فتحول الى قرية لا يكترث لها أحد . وهذا ما جعلها تعيش عانسا حزينة طول حياتها .

فقلت في تحسر :

ــ مسكينة !

وواصل كلامه :

ــ اما حسني بك فقد اتصل بالمراجع العليا وبذوي النفوذ من أصدقائه مرارا تارة بالمواجهة وطورا بالمراسلة لكي يعيد الى المدينة مجدها الغابر ، ولكن محاولاته ذهبت سدى . اما السرايا التي كان يعمل فيها حسني بك فقد أغلقها الاهالي ولم يستعملها منهم احد ، وظلت تذكارا لذلك الرجل العظيم يتردد اليها الاهالي من حين الى اخر ليقضوا في ساحتها ساعة يذكرون فيها مجد مدينتهم الغابر ، ويفكرون في الوسائل اللازمة لتحويل القرية الى مدينة . انني أرى القرية كشخص كان في عز وجاه ثم اضحى فقيرا لا يملك شيئا . ان الانسان يحتمل كل ما في الدنيا من المصائب والكوارث الاشيئا واحداوهو الانحدار الى الذل والفقر والاهمال بعد عز ومجد واحترام . هذا ما يشوه الدنيا ويجعلها بشعةدميمة في انظارنا، وليس الموت الذي تنتهي به حياة الانسان ولا الفقر الذي يلازم صاحبه . ان هذين طبيعيان . اما الذل بعد العز فشيء غير طبيعي تثور منه النفس وتاباه .

عمان   عبد الحميد الانشاصي

طلقت افراح الغواية

ضاءت شموس الله في عيني
واصفر وجه اللهو ، وارتعشت
طلقت افراح الغواية ، يا
اني لآثم فار مشتعلا
فالنور في روحي تقبله
يا خالقي، انت الذي ارجو
صن عورتي، فالوزر أوثقني

لما خلعت على الدجى أيني
كل الشفاه لرقصة البين
ربي ، ولم اركن الى المين
ان يرتوي من راحة العين
كل المفاصل دونما شين
منه الرضا في ساعة الدين
حتى غدوت كفحمة القين

مراكش ــ المغرب   آيت وارهام احمد بلحاج



وحيد الدين بهاء الدين

شكر الله الجر كما عرفته

بقلم وحيد الدين بهاء الدين

* * *

اذا كان شعراء المهجر الشمالي والجنوبي ، ادركوا قيمة الحياة والوجود والغاية منهما بقدر ما وسعتهم طاقاتهم الحسية والروحية ، وبما اوتوا من طبع مرهف ورؤيا نافذة ، فان بينهم من ادركهما على نطاق اعمق واوثق ، بسبب ما عرضت له من محسن وتجاريب ، واقدر له من احتكاك وتلاحم ..

انما كان شكر الله الجر على هذه الشاكلة المتميزة...

انا ابن الابيض الزهراء والشاطي الجميل
انا ابن الحرف والمجذاف والفكر الصقيل
انا ابن السنديان الضخم والحور النحيل
انا ابن الماء والصفصاف والظل الظليل
انني يا ليل ازلي اللاحدود
انني بحر شواطيه بروق ورعود
انني صبح له من مغزل الشمس برود
انني دهر مجاليه نحوس وسعود
انني جزء من الكون وبيت من قصيد
مستمدا من جراحاتي لاوتاري نشيد

اعجبت بهذا الصحفي الرائد ، والشاعر التأملي التفكير ، الشجي النبرة ، وقد اسلم قياده لصبوات الحياة وشهواتها غير ملتفت لما تخبؤه الايام من غدرة وصارفة عائشا ما يناهز السبعين عاما ، كما توخى وتشهى .. ما دامت الدنيا هي الدنيا لا عودة لها ، ولا جدوى من التحسر على ما فات منها واندثر . !

اغتنمها فرصا رائعات ماتعات ما وجد الى ذلك سبيلا وهو يضطلع بدوره المحدود بما ملك ، ثم راح يدفع عن صحته وموهبته تلك الضريبة الباهظة ، التي طالما دفعها نظائره من المفكرين والنوابغ ، حتى كان ضحية من الضحايا يمسدها ضرام الابد ...

كان بيننا اثر عودته من مهجره السحيق بالبرازيل الى قريته الامنة : جبيل بلبنان ، آصرة عقلية ووجدانية ، حاك خيوطها الادب الجميل ونحن نشرب ماءه من ينبوع واحد ، ونستمد منه ما يعيننا على مجابهة ضربات الزمن وهو في الوقت ذاته ، يؤلف بين مزاجينا الى حد قصي ..

ان يكد مطرف الاخاء فاننا نغدو ونسري في اخاء تالد
او يختلف ماء الوصال فماؤنا عذب تحدر من غمام واحد

على تلاحق الايام كانت الرسائل الاخوانية ذات الصبغة الادبية الرومانسية ، متبادلة بيننا . كذلك الكتب والمؤلفات على سبيل الاهداء والاعتزاز ، كلما يسرت ذلك ارادة الاحوال المعقدة المحيطة بنا من كل طرف .

فقد كان شكر الله الجر يحدثني في كل ما تهمه من قضايا الفكر والثقافة ومشكلات الحياة والمجتمع ، ولا سيما الادبية والعاطفية ، حديث الند للند ، لا كلفة بيننا ، ولا تقوم حواجز مصطنعة دوننا . قلبه مفتوح ، يتنسم ويترنم يتغنى ويتشوف ، والذكريات تلونه ، والسالفات من العهود تثيره . في حين ان عقله يعي الصوت والصدى ، قربا وبعدا ويتقبل الاهواء من حواليه صاخبة وهادئة ، وهو رابط الجاش ، لا ينفعل لشيء الا بمقدار ما يقضي ، لا يفتعل شيئا لسبب او لغيره ...

ادرك كنه كثير من الحقائق والوقائع عن طريق التأمل الباطني ومزق اكفان الجمود والصموت على عكس الاخرين ممن عرفهم او تعرف اليهم . وتلك اولى الخطوات في سلم الوجود والتجدد الذاتي . ثم رفض باقتدار اسطورة الالم والهم بالرغم من المرض الذي رافقه طويلا في رحلة الدنيا، واحجم عن القنوط والانغلاق تمشيا مع مبدا الايمان بالجمال السرمدي ورجوعا الى الطبيعة التي تقهر ولا تقهر، منغلقا كطفل على سجيته ، ولو عاش وحيدا لا تناجيه سوى ذاته المنتشية .. السجينة في درب التفرد والتوحد .

بينما هو في واقعه المعاش قريب منك . يبثك خواطره وسوانحه من غير تحرج وتردد ، ويهرق عصارة فؤاده ، ويلقي بأوراق تأملاته برشاقة الاسلوب الشعري ورجاحة العقل الانساني .. اية سمفونية نثرية او شعرية هذه التي تملك عليك قلبك ، وتسمو بخيالك وتوغل في اغوارك ، ثم تدعوك على قدر ما ، مشاركا .

هنا سر خلق الشاعر شكر الله الجر ، وروعة حياته الادبية وطبيعته الواقعية . اسمعه يقول وهو يعزيني بوفاة ابي : « آلمني ما ورد في رسالتك من الم صدع قلبك بوفاة والدك . اسكنه الله جناته . ولن يكون له سكنا في غيرها. لان تلك الارواح الطاهرة التي عانت ما عانته من مضض الدهر في سبيل اسرتها لتكون على احسن حال واهنأ بال لهي ولا شك من سكان الجنة وقد كان ذلك شأن ابيك وابي.

ولا اغالط نفسي فيما اعتقد لان الله رحمة ومحبة ولان آثرهم لديه هم الاباء الطيبون الاتقياء . وعطفا على هذا رجائي اليك بان تلطف من حزنك على الراحل العزيز وتخفف من لوعتك لان الاسف العميق والدمع الطليق على من ترك الدنيا يسيئه ويكربه . واني من هذه الناحية على عقيدة الروحانيين وهي العقيدة المنتشرة كثيرا في البرازيل وسيما العاصمة (ريو ده جنيرو) وفيها ما يقارب المليون (روحاني) ممن يلبسون البياض على امواتهم ولا يلتفظون بكلمة الموت بل يقولون على الميت انه استراح .. اعاضنا الله بسلامتك يا اخي وسلامة اسرتك الكريمة ولعل الصلاة يا اخي افضل ما نقدمه الى الراحلين عنا من احبائنا » ..

كذلك يقول شكر اللهالجر في رسالة اخرى من رسائله الي ، ما يؤكد مواقفه الثابتة ويعزز رايه الخاص : « كما افعمني قولك انك كنت تعيش معي في ديواني (اغاني الليل) وان تتعانق خيالاتنا في فضاء قصي الرؤى من اغاني الوجدانية وانا جاثم على تلك الضفاف السحرية من مدينة الحب والجمال (ريو ده جنيرو) اوقع الحاني على قيثارة حرشت الايام اضلاعها وانحلت اوتارها لفرط ما لامستها انامل الالم في حياتي . وهذا ما جعل مني ــعلى حد قولكــ نسيج وحدي بين شعراء المهجر .. » .

وكنت يومئذ وما ابرح اواصل نشر فصولي الادبية على صفحات مجلة « الاديب » الغراء والخاصة ببعض اقطاب الفكر والشعر ، الذين استطاعوا ان يحتلوا منازلهم واسهموا في تنشيط الحركة العقلية والثقافية وتحويل مجراها الى ما يجدي امة العرب في تطلعها وتصديها للغزو الاجنبي ولما تدبر في الظلام من مؤامرات للانقضاض على تاريخها وتراثها ..

ويبدو ان شكر الله الجر جعل يستحسن ما انشر من مقالات ودراسات ، ويتجاوب معه نفسيا وفكريا،ويأنس بما اركز عليه واتبسط فيه .. ولعله اراد ان لا يبقي صدى ذلك حبيسا يتردد في خباياه لا يتخطاها دون ان يبوح به في رسالته التي ارسل بها الي في يوم ٨ ــ ٥ ــ ١٩٧١ ــ : « اما تقديري لجهودك الادبية فوافر وعميق لا سيما هذا الحماس الاصيل للادب النابع من تلافيف روحك المشبعة بألوان المفاهيم الادبية تؤكدها بحوثك القيمة في منتوج الادباء الالى عالجتهم يراعتك الانيقة على سماحة ورحرحة وسعة اطلاع . وهذا ما اهنئك عليه وهذا ما يبشر بآفاق واسعة في عالم الادب تطل منها علينا بربيع دائم الاخضرار في نفسك. وفقك الله وشرع في وجهك المعالم الرحبة للوصول بمطامحك العالية الى الذروة .. » .

اعجابي بالنابغين من شعراء المهجر وادبائه ، حملني على ان اكرم شكر الله الجر بمقال تحليلي لم يطرق من قبل اوفيه فيه بعض حقه ، ما دام حريا بان يكتب فيه لا كلام مختصر او مطول فحسب ، بل دراسة عامة تتناول حياته وشعره واثره في تطعيم الشعر المهجري بروح الحياة الجديدة السائدة بألوان مبتكرة من الحياة والفن .

فقد نشرت عنه فصلا أدبيا عنوانه « شكر الله الجر : شاعر التأملات والتطلعات » على صفحات مجلة « الاديب » الزاهرة (١) . ما ان اطل عليه من عشه الهادىء بجبيل وقراه بتبصر وتدبر ، حتى بادر بالكتابة الي شاكرا وطارق الفكرة التي عالجتها وعرجت عليها باهتمام ، من وجهة نظر اخرى ولكنها عامة ، فقال في رسالته المؤرخة ب ٢١ ــ ٥ ــ ١٩٧١ : « شكرا حميما على الكلمة البليغة التي توجت بها شعري ونشرتها مجلة (الاديب) الغراء . قرأتها مرتين ولمست جهدك الكريم في اخراجها بلفتك الانيقة » .

وايغالا في شكره على ما توخيت وذكره لما نويت ، ضمن رسالته تلك هدية هي احدث صورة له ، وعليها مقولته : « تذكار مودة واخوة نبيلة الى القلب الكبير والقلم المبدع . الى اخي الاستاذ وحيد الدين بهاء الدين مع اطيب تمنياتي واجملها .. » . كذلك ذكر في اخر رسالته : « اما رسمك الكريم فانتظر ان يحل وان يحتل مكانه من منضدتي وقلبي كما هو الواقع .. » .

فاهديته صورة من صور الايام الغابرة للتحية المتبادلة والذكرى العزيزة ..

ثم ترامى الي ان دار « الضاد » الحلبية بعثت اليه بنسخة من كتاب لي تولت طبعه ونشره وعنوانه «شخصيات من الادب المعاصر» تقديرا لمكانته الادبية . فما كان منه الا ان يطير فرحا ويهتف من قلبه ، وكيف لا والكتاب اضافة الى ما فيه منطو على فصلين مسهبين عن صديقين له من شعراء المهجر الافذاذ هما : جورج صيدح وشفيق معلوف واذا بي اتسلم منه رسالةيقول فيها : « اما كتابك شخصيات من الادب المعاصر فهو من الطراز الاجمل والابدع من نواح كثيرة اخصها الناحية التحليلية لادبهم ولا اكتمك اعجابي باسلوبك الشيق وهو من السهل الممتنع يجتذب القارىء اليه ليغرقه في لجج من بيانك الانيق السمح. وفقك الله وابقاك نجما من نجوم الادب المشعة المتألقة ليبقى لنا منك ذلك المنهل الصافي العذب نحوم عليه تحويمة الطيور على الماء النير .. » .

على ان المنزلة التي يحتلها شكرالله الجر بين معاصريه شاعرا وناقدا .. قصاصا وصحفيا ، اكسبته شهرةعريضة وترامت باسمه في ديار المهجر الشمالي والجنوبي ثم الوطن العربي . وكان طبيعيا ، والحالة هذه ، ان تتهافت دور الطبع بعد عودته الى لبنان عام ١٩٦٢ ، على اعادة نشر بعض مؤلفاته المتسمة بعناصر الجدة والمتعة ، وبطوابع الرومانسية والتأملية . اذ جعلت دار الثقافة هناك تأخذ على عاتقها نشر ديوانيه : « اغاني الليل » و « من خوابي الزمن » وروايته الرائعة « جزر الخطيئة » الصادرة قبل ثلاثين عاما ، وبها تتشابك الاجواء الواقعية المفرقة والرومانسية الحالمة ، في اسلوب شعري مترسل خلوب ، وتتجلى عبرها النظرات الفلسفية الشاملة الى الحياة والناس

والوجود ، كما تتعادل في سطورها صور الاشياء ومعاني الاضداد ..

حتى اذا ادركتني نسخة من هذه الرواية هدية من شكر الله الجر واخذت اعي قيمتها الفنية كاثر ، من الاثار الممتعة ، واتغلغل في مضموناتها المفصحة عن كل لوحة من لوحات هذه الدنيا ، هرعت الى القرطاس افرغ فيه انطباعي الذاتي عنها ورأيي الخاص فيها ، يقينا مني بان الرواية بزت كثيرا من الروايات التي اثمرها الادب العربي في المهاجر الاميركية ..

قلت في ما قلت ، موجها رسالتي الى شكر الله الجر (٢): « انتهى الي كتابك (جزر الخطيئة) في الوقت الذي اعيش فيه معك عقلا وقلبا وروحا ، اعيش مع شعرك الرقراق العذب الصادق الخالي من الدجل والشعوذة والتكلف والتزلف .. اعيش مع (اغاني الليل) التي اشدو بها كل يوم بعض الساعات لاقول فيك — بعد ان سحرتني هذه الشاعرية التي لم اجدها لدى اكثر شعراء المهجر الجنوبي - كلاما جديرا بك في القريب ان شاء الله . اما (جزرالخطيئة) فسيكون لي معها شؤون وشجون لدى الانتهاء من مطالعتها وقد قرات منها الفصول الاولى ، وهي من الروعة في المستوى الرفيع . فيا اخي انت صريح وهذا هو الشيء الرائع.. هذا هو الفن في اصالته وصدقه وتحرره من قيود العادات. والصدق بحد ذاته هو الفن ، ولعلي صادق الى حد كبير في قولي : ان حقيقتك وحياتك يمكن استخلاصهما كما يجب ان يكون الاستخلاص من اقاصيصك واحاديثك واشعارك المطبوعة . وهناك قلة من الشعراء والفنانين والادباء يصح ان يعد انتاجهم صورة واقعية صريحة لواقعهم ... » .

وعلى امتداد الايام كانت صلتي بشكر الله الجر وطيدة تبلورها المشاركة العقلية والروحية تارة ، والثقة المتبادلة تارة اخرى ..

فعلى هذا الاساس وحين استقام لدي كتاب ادبي ينتظر الظهور ، رغبت الى شكر الله الجر ان يتوسط لي لدى احدى دور النشر بلبنان ، يرتبط بها ويعتمد عليها لعلها ان تتولى اصدار كتابي الجديد واخراجه الى حيز الوجود ..

حيث جاءني جوابه المؤرخ بالعاشر من اذار ١٩٧٣ وفيه يذكر بالحرف الواحد : «هذا ما اوقفني يا اخي عن الرد على كتابك السابق .. وكم اكون سعيدا لو تمكنت خدمتك هذه لانك بادبك وفكرك النير تستحق كل مناصرة وتشجيع .. »

وانتظرت ....

لكن رده الاخير جعلني اهفو اليه بفارغ الصبر ، ادركني بما يفصح عن ما في دخائله من احاسيس الاخلاص والوداد ، مشوبة بمرارة وكدر . فيسوق قائلا : «واقسم لك بشرفي ان سكوتي لم يكن نتيجة اهمال من جانبي بل هو نتيجة فشل ونتيجة عقم ادبي عند اصحاب دور النشر فالاديب ان لم يكن مشهورا اعرضوا عنه ولو جاءهم بعقود من الدر بينما دور النشر في الغرب تفتش عن الاديب الجديد وتروج لمؤلفاته وتنشطه ثم تستثمره بطريقة ان يستفيد كلاهما من الاخر .. » . ويواصل شكر الله الجر : « ومما يؤسف له ان يرى الاديب افلاذ قلبه مطمورة في زوايا مكتبته ولا يجد سبيلا لاخراجها الى عالم الطباعة والنشر . ولو قلت لك ان المجلات الخلاعية عندنا تباع بمئات الوف بينما كتب الادب لا يباع منها الا القليل القليل .. » . ثم يزيد: « عندما تقدمت الى جورج طعمة صاحب دار الثقافة عندنا بحديث عنك وعن عبقريتك وعن الشروط السهلة التي تكرمت بها لطبع كتابك وان بوسعه ان يستغل هذا الكاتب العراقي الجديد الذي لا يهمه سوى نشر افكاره الجديدة وخواطره الادبية الشيقة . اتدري ما قاله لي ؟ قال : انك انت يا عزيزي شكر الله لولا ان مؤلفاتك مطلوبة من كافة المهاجرين في الاقطار الاميركية الجنوبية كالبرازيل والارجنتين وسواها نظرا للسنين التي قضيتها في اوساطهم كاديب وصحافي لما كان بالمستطاع تصريف الا القليل من كتبك في الاوساط اللبنانية والعربية . ولذلك اقول لك مهما تكن الشروط التي قدمها صديقك وحيد الدين بهاء الدين ملائمة لي لا يمكن في الوقت الحاضر قبولها نظرا لما نحن عليه من التزامات مع بعض الدول العربية الافريقية بتقديم مئات الالوف لها من مطبوعاتها المدرسية . وحاولت الاتصال بغير دار الثقافة من دور النشر فكان الجواب واحدا مع الاسف .. ختاما اعتذر اليك عن تقصيري وعسى ان لا تكون غاضبا على صديقك هذا .. » .

لا اشك ان شكر الله الجر اضطلع بالمهمة المكلف بها كما ينبغي وحاول جادا ما وسعه ذلك ان يؤدي خدمته المتواضعة هذه لي . ولكن :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه   تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

لم يكن هناك تقصير من شكر الله الجر ولا غضب مني..
ولم التقصير ، فالرجل صادق قولا وفعلا ..
ولم الغضب وهو غير وارد ...
ذلك جار وواقع ...

وبينما نحن في حوار مشترك .. متصل ، صدرت مجموعتي القصصية الاولى « نداء الشوق » فارسلت الى شكر الله الجر بنسخة منها ، واردفت ذلك بكتاب اخر هو « الاخضر بن يوسف » لسعدي يوسف ، ولاء له وتعزيزا لروابط الصداقة التي بيننا وحملا اياه على الوقوف على الوان من الادب المعاصر ..

ان هي الا مدة ، حتى تناهى الي جوابه المؤرخ بالسابع عشر من اذار ١٩٧٣ ، حيث يصرح فيه بكلمات قصارذات

---

(١) عدد حزيران ١٩٧١ وضمنته كتابي « مباحث في الادب العربي المعاصر » دار الحرية للطباعة — بغداد — ١٩٧٥.

(٢) مجلة « اصداء » اللبنانية . العددان ٦ و٧ حزيران — تموز ١٩٧١ .

الحب والمعالي

يهيم قلبي بحب الناس كلهم ... وان تنوعت الاشكال والصور
كانني كنت قبل اليوم اعرفهم ... وما ذكرت لهم عهدا ولا ذكروا
ارى معاني شتى في وجوههم ... وكلها رائع عندي ومبتكر
في كل نظرة عين من لواحظهم ... معنى وفي كل حال منهم خبر
وفي الغواني اذا نادت محاسنها ... بالعاشقين وفيها الدل والخفر
وفي حبيبين أغنى الوصل حبهما ... كلاهما آمر فيه ومؤتمر
وفي رضيع تناغيه وتحضنه ... أم رؤوم وطرف ساهر حذر
وفي الرياض وقد غنت بلابلها ... وزانها الزهر والريحان والشجر
والماء يجري لجينا في جداولها ... وللعصافير فوق الدوح مؤتمر
وفي الجبال وفي الصحراء قاحلة ... وفي الاباطح وشى أرضها المطر
وفي الليالي اذا لاحت كواكبها ... تدعو الى الملأ الاعلى وتنتظر
وفي السماء وفي آفاقها سحب ... والبدر يظهر احيانا ويستتر
وفي الصباح اذا لاحت بشائره ... وفي المساء وقرص الشمس ينحدر
وفي الفراشات فوق الزهر حائمة ... كأنها زهر من تحتها زهر
ارى معاني شتى قد فتنت بها ... يشع منها السنا الباهي وينتشر
بل كل شيء ارى فيه هوى عجبا ... ولمحة من معاني الروح تختصر
طبيعة في أرضاها وتسعدني ... بها أدل على فقري وأنتصر
ومهجة قد جلاها الحب فانطلقت ... فما يخالطها من ريبة كدر
حب تفيض على الدنيا خزائنه ... مما حبا الله لا ما يملك البشر
ورحمة تسع الاحياء قاطبة ... ويلتقي في مداها الظبي والنمر
وقد ارى الحجر القاسي فارحمه ... لو كان يفهمني في صمته الحجر

حلب — عمر ابو قوس

دلالة : « قرات (نداء الشوق) وسررت انه يحمل صورا ناطقة عن حياة هذا المجتمع المريض الذي ما برح يصطلي على نار عاداته ، حتى يذوب . وكأن كل قصة في كتابك مرآة يرى كل منا وجهه فيها . انه الادب البناء يكشف عن الداء ولعل المريض يتدبر امر الدواء . » . ثم يتطلع شكر الله الجر الي من خلال سطوره ليفضي بما في ضميره : « وكان بودي لو شرحت لي شيئا عن كتاب (الاخضر بن يوسف) فتنجلي لي رموزه والغاية من تأليفه .. » .

الشيء الذي اعرفه ان شكر الله كان يشكو ارتفاعا في ضغط الدم وآلاما في المسالك البولية ، مصحوبة بحمى، من ماتصدع له بدنه ، وخارت له قواه الشعورية والنفسية.

وكنتيجة طبيعية لتعاطي العقاقير والادوية على نحو موصول ، ثم الرقود بالمستشفى ، كانت صحته تأخذ بين حين وحين بالتطور والتحسن ، فكان يعود الى مألوف نشاطه الشعري والفكري ..

لكن الحذر لا يمنع القدر كما قيل ...

فقد ادركه الداء والعياء مرة اخرى كما ادركه من قبل مرارا ..

ففاضت روحه في اليوم الثاني والعشرين من شهر شباط ١٩٧٥ ايذانا بغروب، ليس بأول ولا بآخر .

بغداد — وحيد الدين بهاء الدين



الدكتور احمد الشرباصي

المعنى والاعراب عند النحاة

بقلم الدكتور احمد الشرباصي

* * *

النحو هو قاعدة العربية الاصيلة ، ومن نافلة القول أن نكرر الحديث عن قيمته ومكانته ، ولم يكن اسلافنا مبالغين حين قالوا « النحو في الكلام كالملح في الطعام » فاذا كان الطعام لا يصلح الا بالملح ، حتى تعود العامة في الريف ان يسموا الملح باسم « المصلح » فان الكلام كذلك لا ينتظم مبناه ، ولا يتحدد معناه الا بالنحو والاعراب .

ولكن النحو — من جهة اخرى — علم « ثقيل الظل والدم » عند الكثيرين ، يضيقون به ، ويفرون منه كلما اناخ عليه بكلكله ، ويفرحون الفرح الكبير كلما راوا محاولة مبذولة للتخفف منه ، او للتيسير فيه ، حتى لو أساءت هذه المحاولة اليه ، او تحاملت عليه .

ولعل هذا هو الذي شجع الضائقين بالنحو على ان تتوالى منهم حركات التيسير — كما يعبرون — ومحاولات التخفف من وطأة قواعد النحو ، ما بين الحين والحين .

هذا ابن مضاء القرطبي يثور على المألوف في النحو ، المعروف عند النحاة ، فيأخذ في الدعوة الى استبدال « نظرية العامل » التى تعد اساسا من اسس الاعراب، ويأتي الاستاذ ابراهيم مصطفى بعد حين ليردد آراء ابن مضاء، او ليكررها ، دون ان ينسب هذه الاراء الى صاحبها الاول،

وكان من فضل الله على كلية اللغة العربية — حرسها الله معقلا للغة القرآن وادب العرب — ان يخرج احد رجالها هو الشيخ محمد احمد عرفة — ليناقش الاستاذ ابراهيم مصطفى الحساب على هدى وبصيرة .

ثم تأتي محاولة اخرى جعلوا عنوانها : « تيسير تدريس اللغة العربية » ، وكان اهلوها مجموعة من اساتذة الجامعة وكبار المفتشين في « وزارة المعارف » بمصر ورأسها الدكتور طه حسين ، وقد رأت الاستغناء عن الاعراب التقديري والمحلي ، كما رأت تسمية ركني الجملة: المسند والمسند اليه .

ثم كانت محاولة الشيخ عبد المتعال الصعيدي لتيسير قواعد الاعراب ، وكان من رأيه ادماج الاعراب المحلي في المبنيات ، في الاعراب التقديري في المقصور والمنقوص ، والاستغناء عن باب المبنيات .

ثم كانت محاولة الاستاذ امين الخولي الذي طالب بتجديد النحو ، وتذليل اضطراب القواعد والاعراب .

وكانت الصبغة الغالبة على هذه المحاولات انها تتهم النحاة بالتزمت والتعقيد ، والفلسفة والجدل الذي لاموجب له .

وزادت الطين بلة ان ظهرت دعوة الى الغاء الاعراب من العربية ، والاستعاضة عنه بتسكين اواخر الكلمات بدعوى أن الاعراب لا صلة له بالمعنى ، ولا تأثير له فيه ، كما ظهرت دعوة الى التقريب بين الفصحى لغة الكتابة ، والعامية لغة التخاطب ، بالوقوف على السكون كما في الحديث العامي .

وكان لا بد من الدفاع عن لغة العرب ، وكان لا بد من تأكيد ان الاعراب فرع المعنى ، وان اللغة العربية ذات حس ، يتأثر معناها بما يدخل الكلمات والاساليب ، مما يكشف عن المعاني .

وقد هيأ الله لهذا الدفاع احد ابناء كلية اللغة العربية مرة اخرى — ببحثه القيم الذي جعل عنوانه : « المعنى والاعراب عند النحويين ونظرية العامل » . وهذا الباحث افخر بانه كان لي بالامس البعيد تلميذا ، واسعد بانه قد صار لي اليوم زميلا ، وهو من مدينة « دمياط » الحبيبة الغالية ، التي قضيت فيها السنوات الطليعة من الثلاثينيات اطلب العلم في معهدها الديني العلمي الاسلامي ، وقد كانت سنوات من اجمل أيام العمر ، وهي ايام لا تنسى ، عليها اطيب التحيات .

ذلك الباحث هو الدكتور عبد العزيز عبده أبو عبد الله الذي عرفته في شبيبته طالبا نجيبا ذكيا لماحا، فيه على العلم اقبال ، وله في التحصيل ، وفي الادب والاخلاق نصيب كبير ، وعرفته بعد ان تخرج في كلية اللغة العربية ، مربيا فاضلا ومدرسا للعربية ناجحا ، ولم تنقطع عني رسائله الفياضة بملامح الوفاء والتقدير ، وتابعته وهو يسهم بنشاطه الادبي والعلمي ، تارة بالمحاضرات ، وتارة بالمقالات ، وتارة

بالبحوث الادبية ، حتى رايتهوهو يقف وقفة العملاق ببحثه عن « المعنى والاعراب عند النحويين ونظرية العامل » . وهو بحث قد احسن الدفاع به عن حرمة العربية وكرامة النحاة ومنزلة النحو .

ولم يكن الباحث بالمتزمت ولا بالجامد ، بل هو يرى ان لنا ان ندخل على لغتنا بعض التطوير بالتنظيم والترتيب والعناية بدراسة الاساليب الوظيفية ، على ان لا نبالغ في تسهيلها او ايجازها ، وعلينا ان نذلل صعوبتها بالمحاكاة والتشويق والتكرار وبذل الجهد ، وهي مبادىء تربوية لاتقان كل لغة ، والابتداء بالقراءة، ثم تطبيق القواعد عليها.

والبحث في الصلة بين المعنى والاعراب يتطلب ـ كما قيل بحق ـ يحتاج الى قدر كبير من الفهم والروية،لانه بحث يقوم على تلمس المعنى الخصب الذي يعنيه النحوي من غير ان يصرح به ، بل يلفت اليه بالاعراب .

وقد قام الباحث بدراسة عامةلاصول النحو السماعية التي كانت المعين لدى النحاة . وهي القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، ومأثور قول العرب ، فبين كيف كان القرآن سببا في وضع النحو لصيانة كتاب الله تعالى من اللحن ، وكيف كانت القراءات القرآنية مجالا لالوان من الاعراب يترتب عليها تنوع المعنى حسب كل قراءة .

ثم انتقل الى المصدر الثاني وهو الحديث الشريف فأبان اهتمام النحاة به ، واختلافهم في الاحتجاج به،وسبب هذا الاختلاف ، ورأى الباحث وجوب الحاق كلام الصحابة بكلام الرسول صلى الله عليه وسلم ، ما دام جاريا على سنن الكلام العربي .

وتكلم عن المصدر الثالث ، وهو المأثور من كلام العرب فأوضح الذين يوثق بعربيتهم ، ويحتج النحاة بكلامهم ، وخرج من هذه الدراسةالعامة في هذاالحقل بالنتائج التالية:

١ ـ ليست القواعد الا قوانين مستنبطة من طائفة من كلام العرب الذين لم تفسد سلائقهم .

٢ ـ اعلى الكلام العربي في صحة الاحتجاج به هو القرآن الكريم ، ثم ما صح من كلام الرسول والصحابة ، ثم نثر العرب وشعرهم .

٣ ـ منتصف المائة الثانية للجرة هو حد الذين يصح الاستشهاد بكلامهم من الحضريين ، ويمتد الاستشهاد بكلام العرب المنقطعين في البادية حتى منتصف المائة الرابعة من الهجرة .

٤ ـ لا يصح الاحتجاج بكلام مجهول .

٥ ـ لا يحتج بكلام له روايتان ، احداهماتؤيد القاعدة التي تقول بها ، والرواية الاخرى لا يكون لها علاقة بها ، لان الدليل متى تطرق اليه الاحتمال سقط به الاستدلال .

٦ ـ بعض الشواهد تكون محرفة ، ويكون التحريف في موضع الاستشهاد ، فيجب تحرير الشاهد والتوثق من ضبطه في مظانه السليمة قبل الاستشهاد به والبناء عليه.

٧ ـ ينبغي التفريق بين ما يرتكب للضرورة الشعرية وما يؤتى به على السعة والاختيار ، اذ من الخطأ جعل الضرورة الشعرية قانونا عاما .

٨ ـ عند اخذ الشاهد ـ شعرا كانأو نثرا ـ يجب ان نراجع ما قبله وما بعده ، فقد يكون مبتورا ، ومن امثلة ذلك ان يجيزوا مثل قولهم : « جاؤا الطلاب » مستشهدين بان الحديث يقول : « يتعاقبون ملائكة في الليل وملائكة في النهار » مع اننا لو رجعنا الى « موطأ مالك » لوجدنا الحديث فيه هكذا : « ان لله ملائكة يتعاقبون فيكم : ملائكة في الليل ، وملائكة في النهار » . ومعنى هذا انه لا يصح الاستشهاد به هنا .

٩ ـ ان التراجع بين اقوال النحاة يجبان يكون على اساس المعنى قبل كل شيء ، فالمعنى هو الرائد والحكم . واذا دار الامر بين مقتضيات المعنى ومقتضيات الصناعة النحوية ، التزمنا الاولى دون الثانية .

١٠ ـ يفضل في كل مقام فيه اعرابان الاعراب الذي لا يجنح الى تقدير محذوف .

وقد اتبعالباحث ذلك بدراسة موضوعية لشواهد « الكتاب » لسيبويه ، أوضح فيها ما كان يأخذ به سيبويه نفسه من الحرص على المعنى ، وان أتى تخريجه للشواهد بلون من الشذوذ او الضرورة . ومن المعروف لدى اهل العلم ان « الكتاب » لسيبويه هو المصدر الاول لجميع الدراسات النحوية والصرفية واللهجات العربية والقراءات والاصوات اللغوية ، والمؤلفون يستوحونه ويستلهمون منه ما يؤيد فكرتهم .

وسيبويه من شدة اهتمامه بالمعنى نراه يندفع الى تخريج الشاهد من الشواهد على بعض المعاني الثانوية ، متجاوزا بهذا المرحلة التي تعد من لوازم الدراسة النحوية وهي الدلالة على المعاني الاولية .

ويقرر الباحث ان النحويين هم المؤسسون لعلم البلاغة بما فننوا وقعدوا : تقديما وتأخيرا ، او حذفا وذكرا ، وهو ما يؤيد ابغالهم من غير رفق لتمكين المعنى .

وبهذا يمكن ان يقال ان اصول البلاغة نبتت في روضة النحويين ، فكانالاعراب ممزوجابكثير من اسرار التركيب.

وخصص الباحث بابا بين فيه ان الصرح العالي الذي يمثل بلاغة عبد القاهر في كتابه « دلائل الاعجاز » لم يقم الا على القواعد النحوية ، ولولا ما مهدت له من افادتها لمعان ثرية ما شاد البناء .

ويخصص بعد ذلك بابين يدرس فيهما المذاهب النحوية من ناحية انها أثر لخلاف على طلب معنى ، او ان لها منزعا يهيم وراء الاعراب ، أياكان المعنى الذي يكشفعنه.

وتعرض بالبحث لتخريج علماء النحو لما اشكل اعرابه من الايات القرآنية في كتب التفسير ، ومن هؤلاء العلماء ابو حيان الفراء والزمخشري والزجاج. وانتقل الى عرض اراء النحاة المتأخرين من امثال ابن هشام وابن مالك والسيرافي ثم انتقل بالبحث الى « نظرية العامل » وانقسام

الحلم الضائع

« الى الذي رحل ، وترك كتابه على المائدة حيث صورته ، وخطوطه المبعثرة في كـل صفحات الكتاب .»

حبيبي في ربيـع العمر مـاتت
امانينا ، وقـد اوصدت بـابي
ووجهك غـاب من زمن طـويل
وطيفك هـاهنا ، بين الكتـاب
واضـواء الغـد المجهـول ترنو
لعصفـور بـدا تحت الثياب
وحلمي نـائم في الصـدر غـاف
فهـل يصحـو على ذاك العـذاب
تفرق شملنـا صبحـا ، وانا
لفـي حـلم ، وفي زهـر الشباب

الزقازيق ــ مصر — حسين علي محمد

العوامل في النحو الى لفظية ومعنوية ، واوضح خطأ الذين يريدون التخلص من الاعراب بالوقف ، لان ذلك يضيع العلاقة بين اجزاء الجملة فتضيع المعاني تبعا لذلك . وقد فند الباحث الزعم المفتري القائل بان لهجات العرب كانت مجردة من الاعراب ، وان النحويين قد خلقوا النحو خلقاً وابتدعوه من عند انفسهم ابتداعا ، وان عدم وجود القواعد في اللهجات العامية دليل على عدم وجودها في الفصحى ، واستند الباحث الى الادلة التالية :

اولا : عدم وجود القواعد في اللهجات العامية لا ينهض دليلا على انها لم تكن موجودة في العربية ، فقد انتـاب أصوات اللغة وقواعدها كثير من صنوف التغيير والانحراف فبعدت كثيرا عن أصلها .

ثانيا : ليس بغريب ان تتفق اللهجات العامية فـي التجرد من علامات الاعراب ، فقد خصعت لقوانين التطور الصوتي ، وهو ضعف الاصوات الاخيرة في الكلمة وانقراضه وذلك موجود في كل اللهجات .

ثالثا : دقة القواعد لا تدل على انها مخترعة اختراعـا كاليونانية واللاتينية قديما ، او الالمانية حديثا ، فكل منها تشتمل على قواعد لا تقل في دقتها وتشعبها عن قواعد اللغة العربية ، ولم يؤثر هذا في انتقالها من جيل الى جيل ، ولم يقل احد بانها مخترعة .

رابعا : خلق القواعد محاولة لا يتصورها العقل ، ولم يحدث لها نظير في التاريخ ، بل هي تنشأ من ذات نفسهـا ، وتتكون بالتدريج .

خامسا : اذا امكن ان نتصور ان علماء القواعد تواطئوا على ذلك فانه لا يمكن ان نتصور انه قد تواطأ معهم جميع العلماء والمؤرخين من معاصريهم ، فاتفقوا على كتمان هـذا الاختراع ، اللهم الا اذا كان علماء البصرة والكوفة قد سحروا عقول الناس واسترهبوهم فجعلوهم يعتقدون ان ما جاءوا به من افك ممثل لفصيح هذه اللغة .

سادسا : تقوم اوزان الشعر وقواعده الموسيقية علـى ملاحظة نظام الاعراب في المفردات ، ودون اعراب الكلمـات تختل اوزان هذا الشعر ، وتضطرب موسيقاه ، ولا سبيل الى انكار هذا الشعر .

سابعا : أقوى من هذا كله تواتر القرآن الكريـم ، ورسم المصحف العثماني ، مع تجرده من الاعجام والشكل ، فذلك دليل على فساد هذا الزعم ، فالمصحف يرمز الى كثير من علامات الاعراب بالحروف . ولقد تم كتابة المصحف قبل عصر علماء البصرة والكوفة الذين يزعم الجاهلون انهم اصحاب اختراع القواعد .

وقد استعرض الباحث الصبور الدكتور عبد العزيز عبده ابو عبد الله النحو القديم والحديث ، وحاول ايجـاد الحلول التي تذلل الصعوبات القائمة في وجه تيسير وضبط قواعده . بعد ان دافع عن النحاة دفاعا كريما ، ودفع عنهم تهمة الهيام بالصناعة اللفظية ، واستخفافهم بجانب المعنى .

وكان لا بد لهذا الجهد العلمي المضني من تنويه وتقدير فاجتمع حشد كبير من العلماء والمفكرين وطلاب العلم مساء يوم الاثنين الثاني عشر من شهر رجب الفرد سنة ١٣٩٥هـ الموافق للحادي والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩٧٥ فـي قاعة عباس العقاد بكلية اللغة العربية في جامعة الازهـــر ، ليشهدوا حوارا علميا دسما بين الدكتور عبد العزيز عبـده ابو عبد الله ، وبين طائفة من الاساتذة المتخصصين ، هـم الدكتور احمد السيد غالي ، والدكتور ابراهيم عبد الرازق بسيوني ، والدكتور أمين علي السيد .

وامتدت هذه المناقشة العلمية القيمة ما يدنو من أربع ساعات ، وفي خلالها ظهرت علامات التقدير والتكريم لهـذا الباحث الفاضل ، ولعل من ابرزها ان يقول الدكتور بسيوني انه هم بان يأخذ صاحب هذا البحث الى مقعد «الاستاذية» في كلية اللغة العربية حرسها الله معقلا للغة القرآن وادب العـــرب .

وكان لا بد من تتويج لهذا البحث ، وكان تتويجـا باهرا ، اذ استحق ان ينال صاحبه درجة « الدكتوراه » في علم النحو ، بدرجة ممتاز ، مع مرتبة الشرف الاولى .

تحية وتهنئة الى تلميذ الامس القديم ، وزميل الحاضر المشرق ، وصاحب التألق المأمول في غد قريب ، فقد أفاء على النحو رتبته ، وعلى النحاة كرامتهم ، وفتح بابا واسعا نعود فيه من جديد الى حقل الدراسات النحوية ، بمزيـد من المتعة العلمية التي تيسر العسير ، وتثمر الكثير ، وعلى الله قصد السبيل .

القاهرة — احمد الشرباصي

انمضي اليه ام يجيء الينا

●

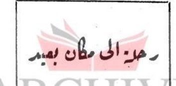
ليلى السايح

●

الكويت



لم يكن الوطن غير كلمة
ثم اصبح موجة في العروق
ثم سماء وارضا
هكذا تكبر طفولة الاشياء
تعلمنا التحول
تشد على ايدينا ، قادمة من المستقبل
كنت أتساءل :
أنمضي اليه ، ام يجيء الينا ؟
فتحت السماء البعيدة جدا
وفي منحنيات الدروب القريبة
نولد كل يوم ، ويولد معنا الاتي ..
ما عدت أتساءل ، لاننا فيه ، وهو فينا
والبعد بيننا ليس الا مسافة نحو الاتي
أيمكن ان يقتنع الغريب
بأن غربته مجرد كلمة ؟
أيمكن ان تكون هذه الشهادة
نهرا ضد القلق ؟
أيمكن ان يكون لقلوبنا هذا الاتساع
فنبحث فيها عن الوطن ؟
أحببت ان يكون لي زمن آخر ، ايام اخرى
وتخيلت انها تركض باستمرار
شاردة وراء سور وهمي
كان لها اللون الاخضر والازرق والابيض
كانت لها كل الالوان
وانا أعطيت ايامي كل الفرح
ابتسمت لكل ما هو عادي
ولكل ما هو غير ضروري
للاقاة الالوان والطرف الاتية ..
لم يكن الوطن غير مفاجاة ..
رغبة في الامن ..
هكذا تحولت الطفولة
وكان الحب ..
ذلك السيد الرائع الذي ينطق بالحكمة
وهو في أوج نشوته
ذلك التموج الدافيء الذي يتشكل
حتى ولو حاصرناه
بكل العادات والموروثات والزخارف
ذلك الوطن البعيد
القادم كطفل يشتعل بالرغبة والنعاس
الى صدورنا !



بقلم حسني سيد لبيب



في مكتب بريد صغير بالاسكندرية ، جلبة وزحام واعصاب مشدودة وقد تعود موظفو المكتب على متاعب موسم الصيف . ولم يشك احد ، فالكل راض ، ويتحين مدير المكتب كل فرصة ليقول :

ـ أفخر بان المكتب لم يتلق اي شكوى من الجمهور .

تمتد الايدي من بين الاعمدة الحديدية ، تدفع بالنقود دفعا ، والالسنة لا تمل تكرار الكلمات :

ـ ورقة تمغة من فضلك ..

ـ أريد طابع بريد ..

ـ استمارة بطاقة ..

تتداخل الاصوات ، واذا ما شذت يد ، فان العيون تزجرها ، وكثيرا ما يتردد العذر من صاحبها :

ـ الوقت ضيق .. و ..

لكن العيون لا ترحم ، فيسحب يده ، ويطلب صفا منتظما . يجيء صوت الاستاذ عبد اللطيف من الداخل :

ـ يا اخوان ، النظام مطلوب. قفوا صفا لو سمحتم .

وفي لحظات ، ينتظم الصف ، وتخف الجلبة . وتبعث له هدى ابتسامة امتنان . كلماته حازمة ، رقيقة في الوقت ذاته ، فاطاعها الجميع بدون استياء . ويتهادى صوت حلو كالنغم الحالم من شفتيها الصغيرتين :

ـ لو سمحت يا استاذعبداللطيف .. ناولني طوابع بريد .. ما عندي نفد .

يأسره النغم الحلو ، وتدفعه عذوبة الصوت الى ترك القلم الذي كان يؤشر بـه على الاوراق ، ويفتح درج المكتب ، ويعطيها فرخين من الطوابع.

هدى فتاة بيضاء البشرة ، كحيلة العينين ، فاحمة الشعر ، مستديرة الوجه ، حلوة التقاطيع . ترتسم ظلال الطفولة على محياها . تأتي الحديث دون تكلف ، كما تنصت الى محدثها باهتمام . تتفانى في عملها ، ويشهد رئيسها عبد اللطيف بكفاءتها. يداها دائبتا الحركة كالمكوك ، تأخذ النقود ، وتعطي الطوابع والاستمارات وبسرعة غير عادية يكون باقي النقود امام المشتري ، ولا ينقصها سوى ان يكون لزبائنها مثل هذه السرعة في التعامل معها . حركاتها متتابعةمنظمة فهي لا تعرف التلكؤ او التأخير ، وتحسبها آلة دقيقة لا تتوقف.أعجب بها عبد اللطيف ، ويطيب له امتداحها امام زميلاتها ، وذات مرة قال لهن مازحا :

ـ هدى كفيلة بامتصاص اي ضغط ما ان ألحظ امامها صفا طويلا ، حتى اجده في لحظات قد شارف على الانتهاء وكأنها تلتهم الناس التهاما ! .

وتضحك الزميلات على التشبيه الذي يقصد به عبد اللطيف شيئا ، ويفهمنه شيئا اخر . تعاتبه هدى على الكلمات التي تصورها وحشا مفترسا ومن غير ان يقصد .

احساسه اليقظ يتشهى كلمات العتاب ، يصغي باهتمام ، ثم يوضح لها انه يقصد اطراءها . لكنه في كل مناسبة يعاود الاطراء بنفس الطريقة وتضحك الزميلات ، ثم تجيء كلمات العتاب من هدى ، ينتشي بالكلمات ويعود يشرح ما يقصد . واستعذب هذه الملاطفة ، كأنها مشهد هزلي في احدى المسرحيات الضاحكة .ويطيب له تكرار المشهد ، محاولا استثارة هدى . وفي احدى المرات ، حين بدأ يرد على العتاب ، سمح ليده ان تمس كتفها ، وسحبها بسرعة ، ثم اصبحت عادته في كل حديث ان يلمس كتفها ، واحيانا ذراعها الرقيقة وفي كل مرة ، يكبت رغبة عارمة في ان يطبع قبلة على جبينها ، اما تقبيل الشفتين ، فرغبة مكبوتة لم يحاول ان يمني نفسه بها ، وان كان لا يمنع خياله النشط من ان يسترسل كما يطيب له . فيجمع به الخيال ، ويتعدى تقبيل الشفتين ، الى عناقها ضاربا عرض الحائط بفارق السن بينهما والذي يناهز الربع قرن . هي تخطر في ثوب العشرين الزاهي، وهو يئن بثقل الخمسة والاربعين عاما .

واذا كان عبد اللطيف يرتاح الى هدى ، وتروق له ، فذلك يرجعه الى عطر الانوثة التي تجتذب الرجال بمختلف اعمارهم ، ولم يحاول ان يطمع في شيء . ففارق السن ـ مدركا منطقه ـ فاصل بين احلامه وواقعه، وهو حريص على الخط الفاصل بين ما يتمنى وما يمكن تنفيذه . لم تعرف حياته الانحراف قط ، وقد حارب كل رغبة متطرفة . ذلك شأنه منذ الصغر ، فقد شب عزيز النفس ، حلو المعشر ، رقيق الحديث . ولم يكن حنانه الذي يسبغه على هدى دون سواها من الزميلات شيئا شاذا او منحرفا .. فالحنان ـ هكذا يرى ـ شيء مطلوب ، الحنان لغة القلب السامية ، لا سيما حين يكون مبرأ من الاهواء .

يجلس عبد اللطيف فاحصا أوراقا بين يديه ، أسمر الوجه ، مديد القامة ، هادىء النفس .. يحس بالجلبة التي يحدثها الجمهور خارج السور الحديدي ، فلا ينزعج ، او يتململ .. واثقا ان البنات ـ هكذا يناديهن ـ قادرات على انجاز أعمالهن

بسرعة وبدون مشاكل ،وعلى الاخص هدى ،حلمه اليقظ ،ورغبته المكبوتة.

الساعة تزحف ببطء نحو الحادية عشرة ، تقترب منه هدى ، تنحني انحناءة كبيرة حتى تدنو شفتاها الصغيرتان من اذن عبد اللطيف اليسرى . تهمس في لثغة محببة :

ـ عن اذنك يا استاذ عبد اللطيف.

يترك ما بين يديه . يلتفت اليها رانيا الى عينيها الكحيلتين ، الى نجمتيه السوداوين ،صامتا،والصمت لغته البليغة ، حيث تتاح له فرصة اهدائها نظرة الحنان ، والامتنان . تعودت على تلك النظرات الخرساء، في البداية كانت ترتبك ، تقلق ، تذعر ترتعش ، فيبتسم ويمطرها بكلماته الطيبة . شيئا فشيئا تعودت على صمته ، واحترمت هذا الصمت . ترد على صمته :

ـ عندي مشوار مهم ..

ـ طيب .

تضيف هدى :

ـ تبيع مني الطوابع .

ينهض : وعلى شفتيه ابتسامة حب خضراء :

ـ أبيع أنا الطوابع .

تتملكها فرحة صبيانية ، تنتشي بحنانه الابوي :

ـ متشكرة يا استاذ عبد اللطيف.

تهرع الى درج الطوابع ، تحسب ما يحتويه من نقود ، وما تبقى من طوابع واستمارات . هدأت الاصوات وقبل ان تكمل الجرد ، قال عبد اللطيف :

ـ اتركي كل حاجة كما هي ، أنا مطمئن .

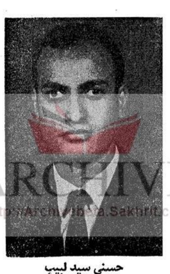
ويصر على موقفه . يمنحها ثقته المطلقة ، شيء رائع ، كلمة الشكر لا تكفي ، ومنعها الحياء من ان تطبع على خده الاسمر قبلة امتنان على شعوره الفياض . أرسلت كلمات الشكر في سخاء . احمرت وجنتاها السعادة تختلط بنبضات عروقها ، تغزو دماءها ، تعطيها الدفء .

تساوى خصلات شعرها النازلة على جبهتها ، ثم تتناول الحقيبة ، تراجع ما بها ، ثم تسأله ان كان يريد شيئا . وكانت فرصة كي يقول :

ـ تصحبك السلامة يا هدى ..

ود لو يسترسل في الدعاء ، بديلا لكلمات الحب التي تنتحر في جوف حلقه ، وان كان الحب يستوطن قلبه الكتوم .

قبل ان تغادر المكتب ، تحرص على تحية الجميع ، أسارير البهجة ترتسم على محياها . ثم تختفي بعد



حسني سيد لبيب

✱

ان تلوح له بيدها الرقيقة ، يثني جذعه ، ويلوي رقبته المديدة بعض الشيء ، ويتتبع خطاها قبل ان تختفي من الباب الضيق عن ناظريه .

يفطن زملاء المكتب الى حنان عبد اللطيف وعطفه عليهم .ويرون ان هدى تختص بحنانه الزائد ، فلا يتبرمون. وكثيرا ما يقول :

ـ نحن جميعا اسرة واحدة .. وهذا المكتب هو البيت الذي يلم شمل الاسرة .

وطبق هذا القول فعلا، فكان هو رب الاسرة المسؤول . وأصبح المكتب هو بيته الذي يرعاه ويهتم بشؤونه .

وبرغم تخطيه الاربعين عاما فلم يزل عزبا . منذ عدة سنوات ، جرب حظه في الزواج من فتاة تصغره بعدة أعوام ولكن طيبته استغلت في غير موضعها واثار والدي الفتاة كثيرا من المشاكل . ودفعه الضيق الشديد ، وصبره النافد ، الى فض الخطوبة بعد ستة أشهر قضى أغلبها في المنازعات . وأبعد فكرة الزواج من محيط تفكيره، وقنع بحياة العزوبة . وتفانى في عمله واحس حين رقي مديرا لمكتب بريد انه أصبح مسؤولا عن اسرة العاملين ، ففاض حنانه على الجميع ، يزرع الحب في قلوبهم ، ويحول مشاكلهم الى طرائف وتذوب احتقادهم ، وتبقى المحبة عامرة في النفوس .

الكل هنا يذكر ما حدث في عقد قران زميلتهم منى . وكيف صار حفلها حديث كل المدعوين . انفرد عبد اللطيف بهدية قيمة ، واشترك الباقون في شراء هدية مماثلة. وطلب عبد اللطيف من فؤاد ان يدعو فرقة الهواة التي يشترك فيها ، واشار على هدى ـ بصفتها زميلة منى ايام الثانوي ـ ان تدعو صديقات منى اللاتي لم تتمكن من دعوتهن ، وشجع سعاد على الرقص دون حرج، واقترح على فتحية ان تذهب الى منى في الصباح لمساعدتها في استكمال زينتها ومصاحبتها الى الكوافير . يذكر الجميع هذا اليوم الجميل ، وكان عبد اللطيف كالمايسترو تطلعت اليه عيون العازفين ، ونجح الحفل نجاحا فاق التصور ، فقد أعد كل شيء في كتمان شديد ، وعمر قلب منى بالسعادة .

ويشعرون بلمسات الحنان، يضفيها على علاقته بهدى . لكنه في الوقت ذاته يحبهم جميعا . اما ذلك الشيء الخفي الذي يشده الى هدى ، فلا يقلقهم ، وانما يزيد من ترابطهم والفتهم .

يبيع عبد اللطيف الطوابع

الحلم الذهبي

حلما اراك بيقظتي ومنامي ... يا برعم الحب الندي النامي
مهما بعدت ، الى الفؤاد قريبة ... في كل ثانية أراك امامي
رسماترافقه البشاشة والرضى ... ونجية ذهبية الاحلام
رؤيا يجللها الجمال مجسما ... فيها لمحت هناءتي وسلامي
مرت فخلت البرق في خطواتها ... ورشاقة سحرية الاقدام
الحسن مجلبة المحبة والهوى ... ومن الملاحة صبوتي وهيامي
يا غادة ، نور الصباح جبينها ... وجمالها فجر الحياة الدامي
في هدبها لهب المفاتن والغوى ... والعين زرقتها مروج غرام
أبحرت في امواجها متفائلا ... ففرقت في بحر الهيام الطامي
وبعدت عن شط الحياة لاجلها ... ليكون في بحر الجمال حمامي
سبحان من وهب الكمال لغادة ... واختصني بالرسم والالهام
فرسمتما اوحى الجمال لشاعر ... والفن منقاد الى الرسام

سان باولو – البرازيل ... فيليب لطف الله

والاستمارات ، بدلا من هدى . يتنازل عن وظيفته كرئيس مكتب بريد له هيبتهالمعروفة لدى الجميع. تقترب منه فتحية وتقول :

– يبدو يا استاذ عبد اللطيف ان المكتب سيفرح قريبا ..

يبش وجهه :

– لم ؟.

– اخبرتني هدى ان حفلخطوبتها قريب ..

– مستحيل ! .

تدهش فتحية ، تكرر قوله :

– مستحيل ؟.

– اقصد مستحيل ان تخطبدون ان تخبرنا ..

– لم تشأ اعلان الخبر ، لغاية ما يتحدد الموعد . واظنك اول من تفرح لهدى ، وكلنا نعرف مدى حبك لها.

يغمغم :

– طبعا .. طبعا ..

ويطبق عليه صمت ثقيل

تتوتر اعصابه. يجاهد كي يحبس انفعالاته ، وتسير الامور كالمعتاد . يبذل عناء بالغا . وقبيل انتهاء مواعيد عمل المكتب ، يقطع حبل الحديث بين سعاد وفتحية ، وهما تتهيآن لمغادرة المكتب . يقول لهما :

– ربما اقوم باجازة ..

– كم يوما ؟.

– قد تطول ..

– لعله خير .

– مسافر ..

– لم ؟.

– لا شيء .. انها رحلة ..

– الى اين ؟.

– قد تكون الى الصعيد ..

تعقد الدهشة السنتهم ، يتناقلون النبأ ، يفسرونه بأن الرجل مرهق، وينشد الراحة من اعباء العمل. وربما مل رتابة الحياة فشاء ان يخلولنفسه بعض الوقت، وارتاحوا لهذاالتفسير. اما ظن البعض بأنه ينتوي الزواج ، فقد شاع بينهم همسا وان لم يتيقنوا من صدقه . يحفق قلب منى وهي تمد يدها تودعه :

– تصحبك السلامة يا استاذ عبد اللطيف .

ولا تستطيع ان تحبس دمعة وفاء وكأنها احست بما يشقي الرجل. ينفعل الجميع لدمعتها ، يعتبرونها آية الحب والتقدير . تقول فتحية:

– عبرت منى عما في قلوبنا جميعا

تعقب سعاد :

– نود الا نفارقك يوما واحدا .

يبتسم عبد اللطيف ، ينسى اكتئابه ..

– ما كل هذا ؟.. انها اجازة .

يرافقه فؤاد الى محطة الرمل ، حيث يستقل الترام .

اصبح وحيدا مع امانيه المصلوبة، وجرحه الفائر . تخلص بعض الوقت من اكليل الحب الذي يلتف حوله ، وعاد الى هواجسه . شيء طارىء لم يدخل في حسبانه ، ستتم خطوبة هدى قريبا ، يجزع فؤاده للنبأ، ويكتئب صدره ، يضيق ، يزفر زفرات الم . يدخن بشراهة ، يطرد الدخان سحبا قاتمة من صدره . غصن البان الذي رواه من احلامه الوردية ، بدأ يتمايل ، ويزهر .. بدأ يجتذب انظار المعجبين ، لا .. بدا يتطلع الى الحب . هدى ، البنت الصغيرة الطعمة ، كبرت .. كبرت وعرفتالحب.لا بد انه شابوسيم، دمث الخلق،متعلم،و ... يفيق حين تلسع السيجارة انامله ، يلقي العقب من النافذة . يتأمل الوجوه التي حوله ، يركز على الشباب ، ينتقي واحدا ، يراه مناسبا لهدى ، ثم يثور على الاختيار . يشيح بوجهه عن غريمه ، ويشعلسيجارة اخرى. يفكر في اجازته . الى اين يذهب؟.. لم يحدد .. اعلن للجميع قيامه باجازة ، دون تدبر . يود ان يغيب عن اسرته ، عن مكتب البريد ، ربما لمدة طويلة .. لا يريد ان يرى احدا، قد يقوم برحلة ما . من الافضل ان تكون رحلة الى مكان بعيد ، بعيدا عن هدى . ولكن .. هل يطيق فراقها؟. وقد يعتكف البيت !..

واطبق علىصدره صمت ثقيل ..

القاهرة ... حسني سيد لبيب



الدكتور محمد رجب البيومي

ديار اللواتي دارهن منيعة

بقلم الدكتور محمد رجب البيومي
الاستاذ بكلية اللغة العربية بالرياض

* * *

اكتب المقالات من ثلاثين عاما ، فما رايت احدا كتب الي ينبئني انه قرا لي شيئا نال قبوله ، لذلك كان غريبا كل الغرابة ان اجد خطابا رقيقا من صديق قديم يحدثني فيه انه اعجب بمقالي « أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا » الذي نشرته في عدد لا ادري تاريخه من مجلة « الاديب » وكدت اصدق ان واحدا من القراء قد استحسن مقالا لي ، لولا اني وجدته في منتصف الخطاب يتعجب كيف أتحدث عن قصة « أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا » ولا اتحدث عن قصة « ديار اللواتي دارهن منيعة » وانا احد شهودها ، وكاتب الخطاب بطلها ، فعرفت انه يطلب ان أسرد قصته فحسب ، اما انه قد أعجب بمقال الجارة فذلك ما كان توطئة تدل على المجاملة ، ولا تنبىء عن التقدير .

وقصة صاحبي قد وقعت منذ ربع قرن ، وانا لا اكاد اذكر تفاصيلها الجزئية انما اذكر مجملها الكلي في غير وضوح كما ارى الشيء من خلال منظار مبتل بالماء ، وقد اجهدت ذاكرتي لتعيد علي ما كان، فاذا لم تلتئم الحلقات على وجهها المستريح ، فانا معذور معذور

كان أستاذنا الكبير أحمد حسن الزيات رحمه الله يؤم مدينة المنصورة في شهور الصيف ، كل عام ، وله مجلسه الزاهر تحت الكافورة على ضفاف النيل ، وقد تحدث عن كافورته في وحي الرسالة حديثا لا يصدر مثله الا من مثله ، وكنا نحن عشاق الادب نسارع الى مجلسه في اشتياق ، لنستمع لا لنتحدث ، ففي المجلس كبار يجيدون الحديث ، ونحن ناشئة نتلمس الخطوات الاولى في الطريق ! أفيجوز لنا ان نبدىء ونعيد ! وكنت أرى بين الحاضرين شابا يجلس على استيحاء ، ومعه ديوان المتنبي لا يترك يده ، وقد ناهز العشرين ، رايته مرة ومرة ومرة دون ان أسمع منه كلمة واحدة ، ورايت معه ديوان المتنبي لا يفارقه ، فشاقني ان أعرف صلته بشاعر العربية الاكبر، فسألت استاذنا الزيات عنه ـ حين قام الشاب لبعض امره ـ فقال الزيات في ابتسام ، انه ساعي البريد بالمنصورة وقد تقدم الي يخبرني بحبه « للرسالة » ، وجنونه بشعر المتنبي ، وهو على خلق وذوق وأدب ، ولو أكمل تعليمه لكان ذا شأن ، ولكن ظروفه صعبة تتطلب النصير .

كان حديث الزيات عن الشاب ، واسمه سيف ، مصدر غرابة واشفاق وحب ، قد امتزجت خلاصتها في نفسي ، فشعرت ان سيفا صديقي وانني أولى بمودته ، وصممت على ان اصاحبه ، وكنت حينئذ في السنة الاولى من وظيفتي التعليمية اشتغل مدرسا باحدى مدارس المنصورة ، وانا فارغ البال لم أزحم بمغالب العيش،ولست مسؤولا الا عن نفسي ، فما ان رايته حتى هرعت اليه ، ورأى مني اقبالا لا يعهده في حملة الشهادات على حد تعبيره ورايت منه هياما بالقراءة ، وحبا خالصا الشعر والشعراء، وجنونا عارما بأبي الطيب ، فهو يحفظ الكثير من قصائده، ويسأل الاستاذ الزيات عما لا يفهم ، ثم هو لا يعدل به شاعرا آخر ، وكنت استمع اليه فاعجب كل العجب،لساعي بريد ، يجمع شروح الديوان بما يقتطعه من راتبه المحدود، ويتغنى بقصائد المتنبي ، وزملاؤه وذوو سنه يرددون اغاني الاذاعة ، والمثقفون من ذوي الدراية يزدرونه ، ويرونه مراهقا يهرف بما لا يعرف ! فهو عندهم دعي لصيق،وعند ذوي طبقته غافل مغرور !

توثقت صلتي بسيف ، وكان الادب لحمتها وسداها، فانا اقرا معه المسرحيات العاطفية ، ما بين مؤلف ومترجم، وهو يسهر لدي احيانا يسمعني بعض قصائد المتنبي ، ويشرحها كما تروق له ، وقد عرفت من أمره الخاص ان والده توفي وهو في السنة الثالثة من الدراسة الثانوية ، وقد نجح عام وفاته ، وانتقل الى ما كان يسمى بالثقافة ، ودخل امتحانها مرتين في سنتين متواليتين ، ولكنه خاب في مادة خاصة أصبحت تمثل له عقدة الفشل والخيبة ، وكم بذل في تحصيلها ما بذل من وقت واعصاب دون جدوى ، حتى اضطر الى العمل في وظيفته المتواضعة ، وانهليجد في الادب والشعر سلواه ، فربما تسعفه الايام بنضوج ادبي يصبح به اديبا موهوبا دون احتياج الى درجة علمية ، ومـاذا يملك المنفلوطي والرافعي والعقاد من هذه الدرجات ! هكذا أقنع المسكين نفسه ، فاخذ يقرأ مجلات الادب ، ويسعى

جنهدا للقاء الكبار من الادباء ، وأعظم سلواه ان يقرأ المتنبي وان يحس في نفسه امتيازا خاصا لانه يستطيع ان يعيش مع اكبر شاعر عربي ، كما يرى الناقدون ، وقد حاولت في مدى ستة اشهر ان اقرامعه بعض الاثار الرائعة لغير المتنبي كي يتنوع زاده الشعري ، ولكنه كان يعطف ثانية على ابي الطيب في اندفاع ! وكأنه هو الشاعر الاوحد في دنيا العرب وهو بعد شاب ناشيء يعيش في دور عبادة الابطال .

لم أكن أعلم ان سيفا يخفي في اعماقه سرا عاطفيا ينفر في قلبه ، ويستبد بمشاعره دون ان يجد صديقا يبثه وجده الكظيم ، حتى جاءت ليلة من ليالي الشتاء سهرنا معا نقرأ فيها شعر المتنبي من قصيدة مطلعها

انا لائمي ان كنت وقت اللوائم   دريت بما بي بين تلك المعالم

فأخذ يقرأ متأنيا متئدا حتى وصل الى قوله

ديار اللواتي دارهن منيعة   بسمر القنا يحفظن لا بالتمائم

فوجدته ينقطع فجأة ، ثم يغيم وجهه — وكان ذا وسامة صبحة — في الم ، فأردت ان اعابثه ، فقلت ان المتنبي ليس شاعر الغزل ، انه يتحدث عن اللواتي ، فهو يعشق بالجملة دون تحديد ، ولو عرف الوجد قلبه لاقتصر على التي فقط ! اهذا كلام يعجبك يا سيف ! ان كنت تحب الغزل الوجداني فلنقرأ معا الشريف الرضي او العباس بن الاحنف او جميل بن معمر ، ما للمتنبي وهذا المجال ! وكان صاحبي لا يطيق صبرا على نقد المتنبي — وهو في ذلك يذكرني بصديقي العزيز الاستاذ عبد العزيز الربيعي راوية المتنبي بالرياض — فتوقعت منه ان يجادل وان يعنف ، ولكن الدموع قد ملأت عينه ثم سالت على وجهه ، واخذ يهمس في حرقة مرددا قول ابي الطيب

ديار اللواتي دارهن منيعة   بسمر القنا يحفظن لا بالتمائم

فدهشت اذ فوجئت بما لم اتوقع ، وسكت وسكت الى مدى ! ثم قال في ألم : لقد هيجني المتنبي ، انها تحبه ايضا ، وتراه اكبر شاعر عرفته الضاد !

قلت مأخوذا : ومن هي ؟ لن اتركك حتى تجيب !

نظر الي في لوعة وقال لا بد للمصدور ان ينفث ، وسأستودعك سري فلتسمع !

كنت أوزع الخطابات ذات أصيل في حي (توريل) فارتقيت الى الدور الثاني من منزل واضح المكانة لاسلم رسالة الى صاحبتها ، وفوجئت بها شابة رائعة في غلالة حريرية بيضاء كأنها لؤلؤة ذات اشعاع ، ولم تنظر الي ، وكأني لست انسانا واخذت الرسالة لتوصد الباب بعد تحية باهتة لا تدل على شعور ، ولا ادري لماذا عدت افكر فيها تفكيرا تشوبه المرارة ، ألانها في هذا المستوى الرائع من الحسن ، ام لانها عرفت منزلتي الاجتماعية فلم تسمح لعينها ان تنظر الي ، ام لان كاتب الرسالة التي حملتها اليها هو صاحب قلبها الخفاق ! لقد قضيت سواد ليلي أفكر تفكيرا يائسا فيها دون جدوى ، وكأن الظروف قد شاءت ان تزيد تعلقي بها ، فقد ابصرتها في الليلة الثانية تقصد محلا تجاريا في السكة الجديدة ، وقد ظهرت في زيها المكتمل كما لم تظهر ملكة صاحبة عرس ، او هكذا وقعت في عيني ، وعدت الى منزلي قلقا لا استطيع ان استقر في موضع ، أفتح الكتاب لاقرأ فلا أفهم ؟ واستمع الى الراديو لاتسلى فلا اعقل ، واحاول ان ازدرد طعام العشاء فتقف اللقمة الاولى دون ان تساغ ! ثم اخرج الى الشارع فأجده ضيقا لا يكاد يتسع لذهابي فأنكص ثانية ، واطفيء النور لانام فأتقلب ذات الشمال وذات اليمين كصاحب علة مستعصية تزود الرقاد!

ويزيد في محنتي اني مجنون المنطق ، احمق التفكير ، فقيد الارادة ، ولو كنت غير ذلك لمنعت نفسي ان تطمح الى غير مطمح ، والزمت قدمي ان تقف حيث تستطيع ، فلا تهرول خلف السراب ، وكان اسم ابيها كما عرفت ذلك من عنوان الرسالة اسما لامعا لصحافي كبير كان ذا دور بارز في سياسة مصر ، وقد انتقل الى رحمة ربه بعد ان ترك تاريخا وكتبا وصيتا حميدا ، وقد حملتني قدماي الى الشارع الذي تقطنه في (توريل) وجلست امام المنزل أحادث احد البقالين في امور اختلقها ، وامتد الحديث لاعلم ان ساكنة الدور الثاني زائرة كريمة ، وفدت من القاهرة منذ اسبوع ، ومنزلها الدائم بالزمالك في شارع عرفته ، وانها لا بد ان ترجع عن قريب .

لم أكف عن التفكير فيها ، وعبثا اصور لنفسي بعدها الشاسع عن طبقتي ، فأجد حديث العقل لا يقنع الوجدان واراني اسير حرب أهلية تشتجر في صدري فتذود عن نفسي الهدوء ، وخفت ان احدث احدا بسري فأكون موضع السخرية والاستهزاء وبدون وعي ذهبت الى دار الكتب بالمنصورة ، وطلبت مجلدات الجريدة التي كان يصدرها الوالد الكبير ، واخذت أقرأ مقالاته وأدون مواقفه ، والخص ما يروقني من حديثه ! مكثت ستة اشهر لا اترك عملي الرسمي الا لدار الكتب ، أطالع المجلدات سنة وراء سنة ، والخص المقالات ، وأملأ الدفاتر واسود الصحائف ، واجد في ذلك راحة وتنفيسا ، وكان يخيل الي حين انهمك في قراءة هذه الصحف اني اقرب شيئا فشيئا من قلب صاحبتي واني حين الم بكل ما استطيع الالمام به من تاريخ والدها سأصبح في عينها شابا ذا شأن ! وقد انتفعت بما قرأت اذ تفتحت مداركي ، واستنار وعيي ، وعرفت دقائق حقبة هامة من تاريخ بلادي ! وكان ذلك كله خطوة اولى تمهد لخطوة ثانية قد تكون ناجحة وقد تكون خائبة ، ولكنها في رأيي ستعذرني امام نفسي اذا لم تكلل بالنجاح .

لقد اتجهت الى عمي لاعرض عليه نصيبي في منزل الاسرة بالريف بحجة اني مستقر بالعاصمة ، ولاقبض منه الثمن ، وكان كريما معي كل الكرم ، فرضي بما فرضته ، وذكر ان المنزل منزلي مهما قبضت الثمن ، ورجعت ومعي سبعون جنيها ، فأحضرت حلتين جميلتين ، وهيأت ملبسي ما يجعلني في مظهر لائق ، وادخرت ما بقي في صندوق التوفير كي استعين به عند الحاجة ، وصممت ان اذهب الى منزلها بالزمالك ، مدعيا اني طالب بالسنة النهائية

في حقوق الاسكندرية ، واني معجب كل الاعجاب بتاريخ والدها ، وحريص على ان أضع عنه كتابا ، ولا بد من معلومات عن حياته الخاصة ، أستقيها مباشرة من عائلته ، هكذا فكرت وقدرت ثم ذهبت !

وجدت القصة مثيرة ، وقد بدأت تتخذ خطا مدهشا فقلت لسيف : ارجو ان تفصل ولا توجز ، ففي حقائق الحياة ما قد يفوق الخيال فنظر الي في أسف ، وقال:دعني يا اخي فانا اتكلم ، وقلبي يتمزق لقد وقعت في مازق ! وكانت ملامحه توحي بما يحتمل في نفسه ، اذ كان صادق اللهجة والسحنة واللفظ والدمعة والزفرة ، بحيث خيل الي انه يصطدم بمأساة ، ولكني أصبحت منتبها لاجده يقول :

لم اكن لبقا فأطلب بالهاتف موعدا للقاء ، ولكني توجهت بعد العصر مباشرة الى منزلها ، وقد راعني مبناه الفاخر بطبقاته الضاربة الى علو يأخذ العين ، وما كدت أصعد درجات الطابق الاول حتى وجدت صورتي في الرخام على الارض وفي المرايا المتعددة الواسعة في كل حائط . فاعتقدت ان المكان ليس لي ، وهجم علي فجأة بيت المتنبي

ديار اللواتي دارهن منيعة بسمر القنا يحفظن لا بالتمائم

وكنت في حاجة الى ان اهدىء خاطري ، كيلا تسرع نبضات قلبي ، فتوقفت لحظات ، حتى عرفت كيف اجمع نفسي ، ثم اعتزمت ان ادق الجرس ، وكأني أهجم على عرين الاسد ، فرأيت اخاها يفتح الباب ، ولحظ في هيئتي ووسامتي وخجلي ما جعله يرحب بي في ابتسام ويقودني الى الصالون كزائر ذي مكانة ! ولم ألبث ان عرضت عليه مهمتي الادبية والوطنية في ضرورة كتابة تاريخ بطل اديب سياسي مفكر ترك تأثيره القوي في محيطه ، ولا بد من الاستفسار عن دقائق حياته الخاصة من ذويه ، فجاء فرج الله القريب حين صاح الاخ مستبشرا : رائع ! رائع ! ان أختي سميرة لديها مكاتب خاصة بمسودات والدها ، وقصاصاته ومقالاته فهي لا تعيش الا على ذكراه ، وانطلق يدعوها ولم تكن غير صاحبتي ! وقد اقبلت منفتحة كزهرة يانعة جاءها الطل في الصباح ، وبعينها فرحة زادت وجهها وضاءة فكأن شمسا اشرقت على غير انتظار ! وقد تشجعت فمكثت اكثر من ساعتين اتحدث عن السياسي الاديب الصحافي الكبير ،وقداخذت للموقف اهبة اعدادا واستشهادا وتعليقا وكان اقبال صاحبتي يخيل الي ان أصبحت حبيبتي وان الفوارق قد ارتفعت فجأة ، وكان ذلك متوقعا لو كنت صادقا فيما اقول : لو كنت طالب حقوق ينشد المادة الاولى للكتابة ! ولكني ساعي بريد !

لم اكد اخرج بعد ثلاث ساعات مرت كثلاث دقائق ! حتى المت سميرة من خلال اسئلتها المهذبة بالقليل من حياتي المزيفة ، وقدتورطت حين ذكرت لها عنواني بالمنصورة لنتراسل في مسائل الكتاب المرتقب ، وفي غيرها مما اكاد اتوقعه ، ولم اذكر عنوان الكلية المزعومة بالاسكندرية متعللا بما قبلته من الاعذار ، كي اسعد برسائلها حقيقة ، وقد تراسلنا مرتين ! ولكني عند نفسي كاذب مزيف ! ولا بد ان ارتقب الفضيحة في يوم قريب !

عاد سيف الى اطراقه ، وهو يتمتم ماذا أصنع ، ستأتي للمنصورة عند صاحبتها ، ومعها عنواني الذي تسرعت في اعطائه ، وسأصاب بخيبة الحياة حين تعرف اني كاذب ! وتلك التي تعادل الموت لدي !

فكرت قليلا ، وقلت له ، اكتب اليها الان انك نقلت الى الصعيد تبعا لوظيفة ابيك ، ولا تحدد عنوانا ، وتصبر في حزم وسينتهي الموضوع !

صرخ سيف : ينتهي الموضوع ! انت تحكم علي بالفناء! ولم يكن الموقف موقف مناقشة ، فحاولت او اواصل قراءة المتنبي ، فلم استطع ، ورأيت ان الوقت قد تأخر ، فقمت وفي نفسي تعجب كبير .

وكأني كنت اتحدث عن نفسي لا عن سيف فقد فوجئت بنقلي انا الى الصعيد مدرسا بأبوبتيح الثانوية ، وراسلت صاحبي مرتين في السنة الاولى مهنئا بالعيدين ، ثم انقطع ما كان من تلاق وتراسل فلم اعد اعرف عنه شيئا ، ولكني بعد بضعة اعوام اظنها ستة قرأت اسما كاسمه بين من عينوا وكلاء للنيابة بوزارة العدل ، فرجحت انه غيره اذ تشابهت الاسماء ، والا فأين سيف من وزارة العدل ؟ وكان علي ان أستوثق ، ولكني اهملت وتراخيت حتى تلاقينا بعد امد طويل بالقاهرة مصادفة في الطريق فاذا سيف يتغير ويعلو وينضر حتى لكأنه شخص اخر . واذا هو يحدثني انه ذاكر ، ونال ليسانس الحقوق وتزوج ، وانه يدعوني الى الغداء غدا ، فعلي ان اقابله في الظهيرة ليصحبني الى المنزل وانطلقت السيارة بنا الى الزمالك حتى وجدتني امام منزل لا عهد لمثل سيف بمثله ، فخطر في ذهني فجأة قول المتنبي « ديار اللواتي دارهن منيعة » وسألت في نفسي متحيرا : أوقعت المعجزة ؟ وكيف ؟ وكان صاحبي رزينا معي اكثر مما يجب . فلم يمهد في الطريق بشيء ، حتى وجدت نفسي امام زوجته الشابة المثقفة النابهة ، كريمة الصحافي السياسي الاديب ! ولو ان كوكبا اصطدم بكوكب ما ، كان له من الاثر لدي ، قدر ما صدمت به من مفارقات ، ولم استطع ان اسأل صاحبي في مجلس الغداء ، ولكني كنت في مهب الريح من الظنون ، وسيف يعلم ما في نفسي ، ويكتم ابتسامة ما تنفرج حتى تتبدد ، وكنت أتعجل الفراق لاقف على السر وصاحبي يتثاقل متعمدا ، حتى كادت خيوط اعصابي ان تضطرب فليست من حديد ، وما وجدت فضاء الله في الطريق حتى صحت به كيف تمت المعجزة يا اخي ! فقال وكان يتحدث عن امر طبيعي ، لا عن مفاجأة مربكة ، زارتني في مسكني وكنت غائبا وعرفت حقيقتي ، فكتبت تشجعني وتقول ان انسانا يؤلف كتابا عن والدها لا بد ان يكمل تعليمه وستقف بجانبي ! وكان خطابها ذا سحر يخترق الصعاب، فواصلت الكفاح حتى اخذت الثقافة فالثانوية ، وصممت

من وحي العزلة

« خواطر شاردة بين ضفاف النيل السعيد واجواء المهجر البعيد »

ذهب الالى صاحبتهم ... وبقيت مثل السيف فردا
سيفا تحدى دهره ... يهتز في غمد تردى
يزداد حدا ، بينما ... أثلامه تزداد عدا
ود الكرام الكاتبين ... فما استجابوا حين ودا
وغزا اللئام الكائدين ... فما استطاع اللؤم كيدا

أرثي نقوم عيدوا ... فاستنشدوا في «العيد» قردا
في « الندوة » استمعوا اليه ... فأنتن الجو المندى
ضحكوا على العي الدعي ... فظن ذاك الضحك حمدا
سيف الشريف أجله ... عن طعن مأفون تصدى
كم هاد عن عنق الذليل ... وخدد الصعار خدا
وعفا عن الحساد ، ثم ... يستثن غدارا ووغدا

ما بال « ناقدنا » تنكر ... بعدما اثنى واسدى
مجدته ، فأبى سوى ... التجريح بالتلميح .. مجدا
شلت يديه حصانتي ... فأصابني بالعين .. كدا
لولا سوابق عطفه ... ما كان صمتي عنه ردا
حابيته بقبوله ... ضدا ، ولم أقبله ندا
يخزي الرجولة ان ترى ... في ثوبه حرا وعبدا

ومعمر علك السنين ... ولم يزل كالطفل رشدا
رام الصعود فساءه ... ان ينتهي من حيث ابدا
فسطا على لقب « العميد » ... وصار « كيخوت » المفدى
كم راض ميدان القريض ... وباض اشعارا .. وكدا
ان كسر الوزن العميد ... فكسره ما كان عمدا
الذنب ذنب القافيات ... العاصيات عليه جدا

اقسى تعاليم الحياة ... العلم ان الموت اجدى

باريس

جورج صيدح

كافأها الله ـ ان انتقل الى القاهرة بمعونة ذويها في عمل ارقى بادارة البريد ثم انتسبت الى الحقوق ، وبذلت جهد المستحيل ، وهي معي في كل لحظة ، حتى نلت الليسانس بامتياز ، وكانت شهد الله ملاك الرحمة تظلني بجناحيها انى اتجهت ، فانا عبدها ما حييت ! انا عبدها ما حييت .

هذا كل ما اتذكر من قصة سيف ! حتى فاجأني خطابه اليوم يطلب ان اكتب خارقته المعجزة ، ولا ادري لماذا اختارني وحدي فلست كاتب قصة ، وانا والله احاول ان اكتب القصص فأجدها تتحول اثناء الكتابة الى مقالات ! وكان عليه ان يختار لحديثه فنانا يبرع ، لا متحدثا يسرد ، فكل ميسر لما خلق له ، كان عليه ان يفعل ذلك ولكنه قد اختارني وحدي ، ولعله عرف فيما بيني وبين نفسي اكباري الزائد لصاحبته المجيدة ، وتقديري الجم لانسانيتها الكريمة ، ومروءتها السامية فأراد ان أسجل هذه العواطف في سطور وما اخالني فعلت فمعجزتها الرائعة تحتاج لكاتب كبير .

الرياض ـ كلية اللغة العربية **محمد رجب البيومي**

محمود العابدي

بعلمه وادبه مخضرم بين فلسطين والاردن

بقلم عجاج نويهض

* * *

اذا كان من معاني « المخضرم »، ولها معان جمة، الماضي نصف عمره في الجاهلية ونصفه في الاسلام ، كما يقول الفيروز آبادي ، واذا كنا لا نقصد هنا بالجاهلية والاسلام غير الانتقال من عهد الى عهد ، فالاستاذ محمود العابدي ، وهو من قرية «عصيرة الشمالية » في لواء نابلس ، المصوب الجبين بالقول المأثور : « خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام» يعد من خيرة عرب فلسطين المخضرمين الذين تناوحت رياحهم بين الضفتين تناوحا جميلا بتوزيع ثمرات علمه وادبه بالثمانية والعشرين كتابا من كتبه في التربية والتاريخ والاثار .

بايجاز ، حصل علومه في فلسطين ، ومولده في اواسط العقد الاول من هذا القرن ، وتخرج من الكلية العربية في القدس ، الكلية التي كان يديرها المربي الكبير الاستاذ احمد سامح الخالدي . ونقصد بان الخالدي رحمه الله ، كان يدير « الكلية » خير ادارة ، ان البث القومي الذي كان يبثه في التلاميذ ، والانكليز المسيطرون على البلاد لا يستطيعون اعتراضه بحال ، كان بثا صافيا رائقا . وفي فلسطين من اول هذا القرن الى منتصفه ، ثلاثة كانوا فرسانا في ميدان التعليم الصحيح للناشئة العربية : الاستاذ نخلة زريق (الى اول العقد الثالث) وتلميذه الاستاذ خليل السكاكيني ، والاستاذ احمد سامح الخالدي . و « الكلية العربية » هذه في القدس كانت تسمى من قبل « دار المعلمين » فلما تسلم زمامها الخالدي ، جعلها « مصنعا » لتخريج الشباب العربي الواعي عن طريق العقل والعلم . الاستاذ محمود العابدي احد هؤلاء .

وانشئت بعد ذلك صلة كالعروة الوثقى بين الاستاذ وتلميذه: الخالدي حادي القافلة ، والعابدي ، وهو يغني: « سائق الاظعان يطوي البيد طي ». ومن اول الامر لما لمح الخالدي النجابة المتوثبة في تلميذه محمود ، اخذ يغذيه بالاطايب ويهديه السبل ويزيده تبصيرا بالامور حتى بلغ التلميذ درجة الاستاذية ، واكتملت له الالة . ولكنه لم ينس شيئا من فضل استاذه عليه . وقد كان الاستاذ الخالدي شديد الاعتصام بامانيه، وامانيه ان يرى الكتب الباحثة في ماضي فلسطين ، الكتب المخطوطة القيمة في بابها، مطبوعة ، وكان غرضه من وراء هذا ان الصهيونية ما برحت تغالي وتزور وتزيف ، وتنكر ما لفلسطين من حضارة كحضارات الاقطار العربية الاخرى . فوضع الخالدي كتابا قيما عالي المقدار اسمه « اهل العلم والحكم في ريف فلسطين » ضمنه تفصيل ما انجبت فلسطين في ريفها وقراها ، فضلا عن مدنها والقدس ام مدائنها ، وكبرى خزاناتها ، حيث اولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ، من رجال العلم الذين تولوا المناصب في الدول الاسلامية من الفتح العربي الى انطواء بساط الحكم العثماني قبل ٥٧ سنة . وهذا الكتاب على ما نعتقد يخلد به ذكر الخالدي احمد سامح.

واذا بكتابه هذا المخطوط يكشف للامة العربية ما قدمت فلسطين على توالي العصور من اهل فضل وعلم وحكم وادب وشعر وتاريخ وفقه وتفسير ، لا في بيت المقدس وحدها ، بل في غزة هاشم ، وخليل الرحمن، ونابلس ويافا والرملة وعكا وصفد وطبرية وعسقلان وقيسارية . واستقى الخالدي هذا كله من كتب الطبقات والتراجم المعتبرة المطبوعة والمخطوطة ، ونقل النصوص بكل امانة يقتضيها العلم الصحيح . ورتب الخالدي هذا الكتاب ترتيبا فائقا ، فعلق حيث جاء التعليق زيادة تبيان وتوضيح ، او جلاء ابهام ليحل محله الصريح ، وختمه بكشاف (فهرس) لاهم ما ورد في الكتاب من اعلام اناسية او مكانية .

والفصول الاولى من الكتاب عنيت بجغرافية فلسطين: الفتح والاجناد والتسمية والحاصلات والانهار والاودية والعيون والبحيرات والجبال والصحاري والاغوار والمروج والحصون والقلاع ، ويبتدىء في الفصل الرابع بذكر اهل العلم والحكم على الحروف الهجائية ، واسماء الاعلام في اول السطور بحروف سوداء والطباعة انيقة والورق صقيل .

فلما التحق الخالدي بالرفيق الاعلى في ايلول ١٩٥١ بالسكتة القلبية ، في بيروت ، وهو يعمل عمل الجبارين في سبيل النازحين فخسرت بفقده الامة العربية عالما عمليا من مقلمي علمائها ، وفقد اهل فلسطين النازحون الى لبنان خير حادب عليهم واكبر معوان ، واقيمت للخالدي في رام الله حفلة الاربعين ، فهنا جاءت المناسبة الحسنة الطيبة للاستاذ العابدي ان يصنع شيئا لتخليد ذكرى استاذه ، غير ما ينشر في الحفلة من اقوال واوصاف فاقترح ان يكتتب تلاميذه ومحبوه بمبالغ تنفق في احب الامور اليه ، رحمه الله ، وهو نشر المخطوطات العربية وما استطيع الى ذلك سبيلا . وبدأ الاستاذ العابدي بنفسه ، واخذ بالمساعي الحرية بان تحقق هذه الغاية النبيلة ، ولا اشرف منها ولا أكرم .

وتمر السنون وتشرق الشمس وتغرب ، واذا

بالاستاذ محمد عبد الكريم العباسي ، يقدم الى الاستاذ العابدي صديقه ثلاثة دفاتر كبيرة بخط الاستاذ الخالدي المقيم عند ربه في النعيم . ما هي تلك الدفاتر ؟ هي «اهل العلم والحكم في ريف فلسطين ».

فاجال الاستاذ العابدي نظره المدقق في الدفاتر وهيأها للطبع وصدر الكتاب في عمان ١٩٦٨ والعابدي وقتئذ « مدير دائرة الثقافة والفنون » ووزع الكتاب على عدد ضخم من ابناء فلسطين وتلاميذ الخالدي وعلى المعاهد العلمية والادبية الثقافية واهل الادب والفكر في العالم العربي .

وهنا لنا شبه اقتراح : اننا لا نعلم مقدار هذه الطبعة الاولى ، ونحسب ان تكون وافرة . ولكننا نعتقد ان هذه الطبعة في حدود بضعة الاف لا اكثر . وفلسطين الحبيبة هذه المكنوزة قيمها في ريفها الى حد الروعة ، لم تبسط حقائقها هذه مثل هذا البسط قبل ظهور هذا الكتاب . وما اجمل ان تصدر منه طبعة ثانية ، لا تقل عن عشرة الاف نسخة ، توزع توزيعا واسعا على المعاهد والجامعات والكليات في العالم العربي ، وعلى كبريات المحلات والصحف في العواصم والحواضر العربية ، فان العرب انفسهم في هذه الافاق هم احوج الامم والشعوب ليطلعوا على حضارة فلسطين الغالية في العلم والادب وتقلد المناصب في الدولة الاسلامية في فلسطين ومصروبلاد الشام. الم يقل صلاح الدين الفاتح المدوخ الباني المنشىء لفلسطين ، الماحي للصليبيين ، ما معناه : ما فتحت البلاد بسيفي بقدر ما فتحت بقلم القاضي الفاضل ، ومعروف ان القاضي الفاضل من بيسان قرب طبرية ، وكانت وزارته لصلاح الدين خيرا وبركة .

نعود الان الى الاستاذ العابدي من نواحيه الاخرى فصلته باستاذه الخالدي الى النهاية ، قد استغرق الكلام عليها معظم ما تقدم ، ولا نحب ان ننقصه حقه وهو قمة فضل وادب ، وسراج وهاج ، ومن الذي يضرب بهم المثل في غزارة الانتاج وانتاجه حرير وديباج ، هو كما قلنا ، رجل تثقيف وتعليم وتهذيب ، وتأليف . هو هكذا في الضفة الغربية ، او « فلسطين » التي لا اريد ان يفارق اسمها فمي ما حييت . وبعد الانهيار انتقل بنشاطه الى عمان يواصل المثابرة ، وتقلد عدة اعمال ومناصب في الدولة الاردنية حيث يرى عمله متناسقا مع كفاياته ، وهو منصب من اول امره على التاريخ العربي الاسلامي ، والثقافة التي هي ريق العرب وترياقهم ، الجامعة لهم في جميع آفاقهم ، والعرب امة المستقبل ، وانف اسرائيل ومن وراءها راغم ، ما اعتصم العرب بعرى هذه الثقافة .

بدأ الاستاذ العابدي حياته التاليفية منذ ما يقرب من اربعين سنة ، وهوفي فلسطين ، وكل كتبه من امتصاص التاريخ ، مثقفة ، للتلميذ في المدرسة ولافراد اهل البيت جميعا ، اذ من كتبه ما هو اجدر الكتب العربية بالمطالعة التي تعطي مطالعهاعلما وعبرة وتهذيبا. والى السنة الماضية بلغت كتبه ٢٨كتابا . وانك لتجد في مطالعة كتبه نوعا من اللذة «الروحية»، فهو يكتب مواضيعه بعد تعشق الموضوع تعشقا ليس عليه من مزيد . واني هنا مقتصر على ذكر اربعة كتب من كتبه الصادرة بين ١٩٧٠ الى ١٩٧٤ واتناولها لا لمجرد انها حديثة الاخراج ، بل لانها ذات موضوعات شائقة .

«اجانب في ديارنا» : صدر هذا الكتاب سنة ١٩٧٤ في عمان ، وله خاصية تجعله شهي المطالعة جدا، فالاستاذ العابدي في هذا الكتاب قال في مقدمته ، « اعترف ان ليس لي في هذا الكتاب سوى جمع المعلومات من مصادرها العربية والانجليزية لاسهل على الكثيرين الحصول عليها، وقد جعلتها في متناول القارىء العربي». هذا صحيح على ظاهره، ولكن من يقرأ الكتاب يؤمن ان « عمليته» ليست من السهولة التي ترشح من كلام المؤلف ، وهوكلام جد متواضع . فهنا اقوال ومقالات وفصول وتقارير لنحو من ٤٠ رحالة من الرجال ورحالات من السيدات، تقلبوا في بلاد العرب وطافوا وجاسوا خلال الديار، وهؤلاء كان منهم الصديق ، والعدو بثوب صديق . وتبدا قصتهم من زمن الحروب الصليبية لتنتهي بالمعاصرين المحدثين ، من فلبي المسمى بالحاج عبد الله وتعرفه البلاد العربية حق المعرفة ، ويوجد معاصرون كثيرون في العراق والاردن والسعودية يعرفون « السير جون فلبي» معرفة تامة . ومثل فلبي ، برسي كوكس في العراق ، والمعاصرة له الانسة جرترود بل ثم فريا ستارك في الحرب الثانية، الى كركبريد (وهما اثنان اخوان كان ابوهما مراسل رويتر في عمان) الذي بقي في عمان الى يوم قريب . واما السياح الذين اختار الاستاذ العابدي عرضهم فقد كانوا في القرون الاخيرة ومنهم من استطاع الوصول الى مكة المكرمة متنكرا منتحلا الاسلام .

ومادة الكتاب كلها تغري بنفسها امام القارىء لشدة ما بين موضوعاتها وحالتنا في عصر انتهى فيه الخمول عندنا الى الحركة وازالة الغشاوات عن العيون يحسن العربي كل الاحسان ان يطلع على هذا الكتاب وهو في ٣٦٠صفحة مع رسوم لعدد كبير من المحكي عنهم والطباعة رائعة والحجم من الوسط الكبير . وضع الاستاذ العابدي هذا الكتاب وهو « المستشار الثقافي في امانة العاصمة»، عمان .

« الاثار الاسلاميةفي فلسطين والاردن » : اخرج سنة ١٩٧٣ وهو في ٣٠٧ صفحات ، وكل هذه الكتب متقنة الاخراج ومستوفية مستوى الفن . مادة هذا الكتاب بعضها مجموع من كتب وصحف ومجلات موثوق بها، وبعضها الاخر من وضع المؤلف وترتيبه . والذين نقل منهم الاستاذ العابدي عرفهم جميعا من المعاصرين كأحمد تيمور باشا واحمد زكي باشا (شيخ العروبة)

والاستاذ عبد الله مخلص والاستاذ عارف العارف وسليم حسن وعيسى اسكندر المعلوف وجميعهم في الآجلة رحمهم الله ، والاساتذة عزة دروزة وديمتري برامكي ونقولا زيادة امد الله في اعمارهم ، ويختص المؤلف بالذكر الاستاذ مصطفى الدباغ صاحب « بلادنا فلسطين » الموسوعة التاريخية الاقتصادية والحق ان كتاب « الاثار الاسلامية في فلسطين والاردن » يتعلق باثار بلادنا الصامتة ولكنه جاء عنها بالسنة ناطقة ، عذبة مطالعته .

« عمان » اذا كان لكل عاصمة من عواصم العرب تاريخ، وعمان لم تكن في العصور الاولى الاسلامية من الحواضر والعواصم ، ولكنها لما اخذت من بعد الحرب الاولى تنمو وتتسع على غير توقف ، حتى بلغت مستواها الحاضر تملأ الاودية والشعاب والجبال ، بأجمل طراز من البناء الحجري البديع الشكل ، فباتت بحاجة الى تاريخ يجمع شتات اخبارها الماضية والحاضرة ، وتبتدىء قصتها من عدة قرون قبل العهد المسيحي ، لتنتهي اليوم وهي من عرائس العواصم العربية . سبك الاستاذ العابدي شذرات هذه القصة سبكا بديعا محلى بالرسوم الواضحة . وعرض ادوار عمان منذ الفتح . والكتاب في صفحاته المجلوة كثير من صور الاثار ونصف الكتاب تقريبا يتكلم عن عمان الى الفتح الاسلامي ، ونصفه الاخر يبحث في العصور العربية الاسلامية حتى اليوم وفي آخره خارطة لمدينة عمان .

«محنة بيت المقدس » محنة بيت المقدس كلمة تلقى على الجراح ذريرات ملح ، والملح يكوي ، ولا مناص . فبعد اجتراء الصهاينة على حرق المسجد الاقصى المبارك ١٩٦٩ كثر التطلع الى بيت المقدس والمسجد الاقصى المبارك ، والمصير . كما كثر واشتد شوق الناس ليزدادوا معلومات عن بيت المقدس . وفي الواقع ان الكتب والمؤلفات الموجزة والمطولة التي وضعت بعد حادث حريق الاقصى الى اليوم، دلت على يقظة بالغة الحد في العالمين العربي والاسلامي، وبقي الصهاينة يتشامخون حتى جاءتهم حرب رمضان او تشرين فذاقوا ما لم يذوقوه من قبل . فجاء الاستاذ العابدي ، وهو ابن بجدتها وفرسان الحلبة فوضع هذا الكتاب « محنة القدس » ضمنه صفوة تاريخها ولباب اخبارها ، مع مجمل خبر المعترك بين العرب واليهود . ويصف المؤلف بالتفصيل كيف اخذ العدو الماكر يتحايل حتى يصل الى وضع النار في الاقصى ، وفي هذا الصدد نقول ان من الكتب التي اطلعنا عليها حول الاقصى والحرم القدسي الشريف ، وبيت المقدس الى جانب « محنة القدس »، الكتب التالية :

١ ـ كتاب من كتب « موسوعة العتبات المقدسة » في بغداد للمؤرخ العلامة جعفر الخليلي ، وهو جزءان موضوعه « قسم القدس » والقسم الاول اشترك فيه مع المؤلف (الاستاذ الخليلي)، كل من الدكتور عبدالهادي التازي ، سفير المغرب في بغداد وقتئذ ، كتب فصل «حي المغاربة » والدكتور احمد سوسه (المهندس) كتب الجزء التاريخي وعنوانه « اورشليم الكنعانية » والدكتور سوسه هو صاحب تاريخ « العرب واليهود في التاريخ » الذي صدر في بغداد في مجلد ضخم وكان مفاجأة لاهل العلم ومحبي التاريخ في الدنيا لكشفه كشفا رائعا عن اباطيل اليهود التاريخية وسفاسفهم ، وقدترجم هذا الكتاب الى الانكليزية وصدرت منه بالعربية طبعة جديدة مزيدة . والجزء الثاني من كتاب « موسوعة العتبات المقدسة » هو كناية عن نقل ما ذكرته المصادر الاجنبية عن القدس وقد قام بترجمة هذا تحت عنوان « القدس في المراجع الغربية » الاستاذ جعفر الخياط .

وقد وضع العلامة الدكتور حسن ظاظا استاذ العلوم اللغوية بكلية الاداب بجامعة الاسكندرية (والاختصاصي بتاريخ اليهود واللغة العبرية) رسالة موضوعها « القدس ـ مدينة الله ام مدينة داود ؟» رصينة ممتعة ، وهي جوهر ولباب .

ووضع الشيخ طه الولي (في بيروت) رسالة محيطة جامعة في هذا الباب والله ولي التوفيق الغالب .

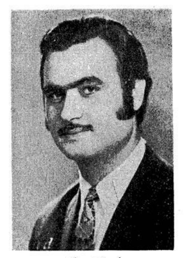
راس المتن ـ لبنان **عجاج نويهض**

الارث

العام عام جـديد ..
وما يزال نحننا المديد
كالامس لا زال رتيب الوقع
وجدنا المسكين
يبلعه بيت بلا شباك .
ورغم انفاس الصباح ،
جدنا لا يزال
يحكي لنا قصة فارس همام
لا يخاف الزمن

العام .. عام جديد
وما يزال لحننا لحنا حزينا مديد
وجدنا .. مات ،
ومات كل شيخ عميد
والارث لا يزال في حقولنا يزهر ..

وجدة ـ المغرب **محمد علي الرباوي**



فـوزي عطوي

ابو عبد الرحمن العطوي

بقلم فوزي عطـوي

* * *

ورد في كتاب « الشعراء » لمحمد بن داود قوله يصف ابا عبد الرحمن العطوي : «كان له فن من الشعر لم يسبق اليه ، ذهب فيه مذهب اصحاب الكلام، ففاق جميع نظرائه ، وخف شعره على كل لسان .. واستعمله الكتاب واحتذوا معانيه ، وجعلوه اماما ».

وحدث ابو العباس محمد بن يزيد المبرد ، صاحب « الكامل » عن العطوي ، قال : « كان العطوي ، وهو عندنا بالبصرة ، لا ينطق بالشعر ، ثم ورد علينا شعره لما صار الى «سر من راى »، وكنا نتهاداه .. وليس له قول يسقط .»

اما ابو الفرج الاصفهاني ، صاحب « الاغاني »، وابو علي القالي ، صاحب « الامالي » و « ذيل الامالي »، وابو منصور الثعالبي صاحب « الاعجاز والايجاز » ، فقد اوردوا كثيرا من اخباره واشعاره في مصنفاتهم ، كما روى شعره وطرائفه كثيرون ، من امثال الاخفش الشاعر ، وعلي بن سليمان بن الفضل الكاتب ، ومحمد بن مزيد ، وكوثرة العطوي اخي ابي عبد الرحمن ، وابو يعقوب اسحق بن الضحاك بن الخصيب الكاتب ، ومحمد بن السري السراج ، وابو الحسن بن جعفر جحظة البرمكي وغيرهم.

عصره ونشأته : ليس في المراجع التي بين ايدينا ما يحدد تاريخا لولادة العطوي ، او تاريخا لوفاته ، لكن الاصفهاني يذكر عنه في «الاغاني» (ج٢٠ ــ ص ٥٨ ــ ط. بولاق) انه « بصري المولد والمنشأ »، وانه « كان شاعرا كاتبا من شعراء الدولة العباسية ، واتصل باحمد بن ابي دؤاد ، وتقرب اليه بمذهبه ، وتقدمه بقوة جداله عليه، فلما توفي احمد نقصت حاله ، وله فيه مدائح يسيره ومراث كثيرة ».

واذن ، فقد عاصر العطوي ابا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، والمبرد ، والاخفش ، والوزير محمد بن عبدالملك الزيات ، والقاضي ابا يوسف ، ويزيد بن هارون، والسري بن عبدويه ، والحجاج بن محمد حماد بن سلمة، وابا بكر عبد الله بن داود السجستاني ، ويموت بن المزرع (ابن اخت الجاحظ)، ومحمد بن عبد الله بن ابي الدلهاب ، وابا يعقوب الخزيمي ، والفتح بن خاقان الوزير ، والرئيس ابا الفضل بن العميد ، وابا القاسم السيرافي ، وابا معاذ عبد الله الخولي والمتطبب ، وغيرهم من اقطاب العلم ، والادب ، والسياسة . ولعلنا لا نخطيء التقدير ، بالاستناد الى ما اورده محمد بن داود في كتابه « الشعراء » عن ذهاب العطوي في شعره مذهب اصحاب الكلام ، والى ما اورده المبرد في كتابه «الكامل» عن صيرورة العطوي الى « سر من راى» انه كان وثيق الصلة بالجاحظ ، وبالمعتزلة بصورة عامة ، لا سيما وان الجاحظ ،على ما رواه الخولي، كان بعدما اصيب بالفالج ، مقيما في « سر من راى » التي اصبحت تعرف فيما بعد باسم « سامراء ».

اسمه ونسبه : اما اسمه ، فهو كما اورده صاحب «الاغاني» : محمد بن عبد الرحمن بن ابي عطية مولى بني ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، ويكنى ابا عبد الرحمن .

وليس في هذا التعريف ما يشير الى اصل نسبه ، لكننا نؤكد ، اعتمادا على كتاب « بلوغ المرام في شرح مسك الختام في من حكم اليمن من ملك وأمام » الذي وضعه حسين بن احمد القرشي ، وعني بنشره الاب انستاس ماري الكرملي (ص ٤٣٠ ــ الفهرس ١٨ ــ ط. البرتيري بالقاهرة ١٩٣٩)، ان العطوي يماني الاصل ، وان لفظة « العطوي » ــ على ما ورد في الكتاب المذكور ــ تعني « قصب السكر الاحمر »، وقد اطلقت اللفظة ــ على ما يذهب اليه المؤرخ العلامة الشيخ محمد طه الولي ــ على قوم كانوا طوال القامة ، عذاب الحديث ، وذوي وجوه مشربة بالحمرة ، يؤكد ذلك ان ذكر اللفظة في الفهرس الثامن عشر من «بلوغ المرام في شرح مسك الختام في من تولى اليمن من ملك وامام » قد ورد في سياق سرد عدد من الالفاظ اليمانية ، «وقوفا عليها لمن يريد ان يعرف امثلة من لغة اليمانيين» (الفهرس ١٨ ــ ص ٤٣٠).

لكن العطوي ، وان انتسب الى اسرة يمانية الاصل، فهو قد ولد في البصرة بالعراق ونشأ فيها ، كما ذكر

« الاصفهاني »، ومن المؤكد ان اجداده الاقدمين كانوا في عداد من حملتهم الفتوحات الاسلامية من الجزيرة العربية فاستقر بعضهم في العراق ، وانتشر بعض هذه الاسرة في لبنان ، وفلسطين، ومصر ، وانتقل بعضها الى المغرب العربي ، ولا سيما « الجزائر ».

من طرائفه : روى كوثرة اخو العطوي عنه هذه الطرفة ، اذ قال : كان اخي ابو عبد الرحمن يشرب مع اصدقاء له من الكتاب ، ومعهم قينة يقال لها «مصباح» من احسن الناس وجها ، واطيبهم غناء ، فما زالوا في قصف وعزف الى ان انقطع ... فبقوا حيارى ، وكانوا قريبا من منزل ابي العباس احمد بن الحسين بن موسى بن جعفر بن محمد العلوي ، وكان صديقا لابي عبد الرحمن (العطوي)، فكتب اليه :

يا ابن من طاب في المواليد مد   آدم جرا الى الحسين ابيه
انا بالقرب منك عند كريم   قد الحت عليه شهب سنيه
عنده قينة اذا ما تغنت   عاد منها الفقيه غير فقيه
تزدهيني ، واين مثلي في الفهم   تغنيه ، ثم لا تزدهيه
مجلس كالرياض حسنا ، ولكن   ليس قطب السرور واللهو فيه
وباشياخك الكرام الى السؤدد   موسى بن جعفر ، وابيه
ان تجشمتني ، وان كنت الا   مثل ما يانس الفتى باخيه

فلما وصلت الرقعة الى ابي العباس ، ارسل اليه براوية شراب ، فلم يزالوا يشربون مجتمعين ، حتى نفدت في اخفض عيش (الاغاني ج٢٠ – ص ٥٩ و ٦٠)

ومن الواضح مدى تاثير العطوي (البيت الثالث) في قول الشاعر :

« قل للمليحة في الخمار الاسود   ماذا فعلت بناسك متعبد»

ومما رواه كوثرة العطوي عن اخيه ايضا قوله : كان لابي عبد الرحمن صديق من الادباء ، وكان يتعشق جارية من جواري القيان ، يقال لها «عثعث» وكان لا يقدر عليها الا على لقاء عسير ، واجتماع يسير ، فارسل اليها يوما، فاحضرها يوم رذاذ به من الطيب والحسن ما الله به عليم، فكتب الى صديقه يعرفه الخبر ، ويسأله المصير اليه، ووصف له القصة بشعر فقال :

يوم مطير ، وعيش نضير ،   ... تدور ، وقدر تفور
وعثعث تاتي اذا جئتنا   فتسمع منها غناء يصور
وعندي وعندك ما تشتهيه   شعر يمر ، وعلم يدور
واذ كان هذا كما قد وصفت   فان التفرق خطب كبير
فقم نصطبح قبل فوت الزمان   فان زمان التلهي قصير

فسار اليه صاحبه ، فمر لهما احسن يوم واطيبه.

ويردف الاصفهاني معلقا على هذه الابيات : وهذا الشعر اخذه العطوي من كلام اسحق ، اخبرني به وسواسة بن الموصلي عن حماد عن ابيه ، قال : كان يالفني بعض الاعراب ، وكان طبيا ، فجاءني يوما ، فقلت له : « لم ارك امس »، فقال : « دعاني صديق لي ». فقلت : «صف لي ما كنتم فيه » . فقال لي : « كنا في مجلس نظامه سرور، بين قدور تفور، ... تدور ، وغناء يصور، وحديث لا يجور ، وندامى كأنهم البدور .»

قال اسحق : وقلت لبعض الاعراب : « طلبتك امس فلم اجدك ، فاين كنت؟ » قال : « كنت عند صديق لي فاطعمني بنات التنانير ، واطعمني امهات الابازير ، وحلواء الطناجير، وسقاني زعاف القوارير، واسمعني غناء الشادن الغرير ، على العيدان والطنابير ، **قد ملكت باوقار الدراهم والدنانير** ».

وروى ابو الفرج الاصفهاني ، قال : قرات في بعض الكتب ، بغير اسناد ، ان العطوي كان يوما جالسا في منزله، وطرقه صديق له ممن كان يغني « بسر من رأى »، فقالله: « قد اهديت اليك جواري اليوم ، ... يكفيك، وحسبك بالكفاية .» واقام عنده ، فدخل عليه ... احسن من القمر، فاحتسبوه ، وكتب العطوي الى صديق له من اهل الادب:

يومنا طيب ، حسن القصف   وحث الارطال .....
ما ترى البرق كيف يلمع فيه   ورشاشا يبل في الساعات
ولدينا ظبي غرير ظريف   قد غنينا به عن القينات
ان تخلفت بعدما تصل الرقعة   عنا ، فانت في الاموات

فاجابه الرجل فقال :

انا في اثر رقعتي ، فاعلمن ذاك   على انني من البيات
فافهم الشرط بيننا ، لا تقل لي   قد تثاقلت فانصرف بحياتي
لا لسر ، لكن لامتع نفسي   بحديث الظبي الغرير المواتي

ومثل هذه المحاورات كانت ، ولا ريب ، مألوفة الاسلوب والمضمون ، في العصر العباسي الذي شاعت فيه المجون والعبث ، ضروب والوان .

في وصف المجالس : وعلى الرغم من ان المبرد يذكر في «الكامل» ان ابا عبد الرحمن كان مقترا عليه ، دفرا ، وسخا ، منهوما ...»، فقد اثبت انه كان للشاعر ، في وصف الصبوح وذكر الندامى والمجالس احسن القول ، وليس له قول يسقط ، فمن ذلك قوله :

فيئي الى اهدى السبل   قولا ، وعلما ، وعمل
قاتلها الله ، لقد   سامتكما احدى العضل
تقول : هلا رحلة   تنقلنا خير نقل
اخشى على جائلة   الامال جوال الاجل

ومنها قوله (الاغاني ص ٥٧ – ج٢٠):

... والندمان احسن منظرا   في كل ملتف الحدائق رائق
فاذا جمعت صفاءه وصفاءها   فارجح بكل ملمة من خالق

وبعد ان يثبت الاصفهاني هذين البيتين يردف : «الشعر للعطوي ، والغناء لبنان ثقيل، اول بالوسطى، وفيه لذكاء وجه الدرة خفيف ثقيل .»

ويذهب ابو منصور الثعالبي في الباب الرابع من كتابه « الاعجاز والايجاز »، وهو الباب المخصص بملح الظرفاء ونوادرهم (ص ١٩١) الى ان من احسن ما قيل في مدح الصبوح ، قول محمد بن عبد الرحمن العطوي :

ان شرب .... سير لي اللهو   وخير المسير صدر النهار

وقوله :

ما ترى يومنا وحسن ابتدائه   وندى ارضه ، وهطل سمائه

وقوله أيضا :

ان صدر النهار انضر شطريه　　كما نضرة الفتى في ثنائه

وقد انشد « الاخفش » وغيره من شيوخ الادب للعطوي في الندمان ... مما يغني فيه :

فكم قالوا : تمن، فقلت كأس　　يطوف بها قضيب في كثيب
وندمان تساقطني حديثا　　كلحظ الحب ، او غض الرقيب

وقد ذكر لي الاب المحقق يوسف عون الذي اعاد تحقيق مختارات من «الاغاني» ان هذين البيتين هما من ارق الشعر ، في موضوعهما ، في الادب العربي اطلاقا. ويوضح الاصفهاني ، بعد هذين البيتين المثبتين في الاغاني ان « الغناء في هذين البيتين لذكاء وجه الدرة ، خفيف رمل . »

وفي وصف القيان : وروى ابو يعقوب اسحق بن الضحاك بن الخصيب الكاتب ، قال : جاءني يوما ابو عبد الرحمن العطوي ، بعد وفاة عمي احمد بن الخصيب بسنتين ، وكان صديقه وصنيعته ، فجلس عندي يحادثني حديثه ، وتبكى ساعة طويلة ، ثم تغيمت السماء ، وهطلت، فسألته ان يقيم عندي ، فحلف ان لا يفعل الا بعد ان احضره من وقتي ما راج من الطعام ، ولا اتكلف له شيئا ، ففعلت وجئته بما حضر ، فقال لي : « ما فعلت «عقد»؟» قلت : « باقية ، وهي في يومنا هذا مقيمة عندي ، والساعة تسمع غناءها . » فقال لي : « عجل اذن ، فان النهار قصير . »

ثم انشأ يقول :

آدر ... قد تعالى النهار　　ما يميت الهموم الا ...
صاح هذا الشتاء فاغد عليها　　ان ايامه لـذاذ قصار
اي شيء الذ من يوم دجن　　فيه ... على الندامى تدار
وقيان كأنهن ظباء　　فاذا قلن قالت الاوتار

في وصف الاصدقاء : ومن قلائد العطوي قوله (الاعجاز والايجاز ـ ص١٩٢) في الاصدقاء :

يقولون قبل الدار جار موافق　　وقبل طريق المرء انس رفيق
فقلت وندمان الفتى قبل ...　　فما حب ... المرء مثل صديق

ومن غرر احاسنه في ذم كثرة الاصدقاء (المرجع السابق)، قوله :

لم اجد كثرة الاخلاء الا　　تعب النفس في قضاء الحقوق
فاصرف النفس عن كثير من الناس　　فما كل من ترى بصديق

في الاستزارة : ويؤكد « الثعالبي » انه لم يسمع « في الاستزارة الطف واظرف من قول العطوي »:

كنت المعزي بفقدي　　وعشت ما شئت بعدي
اهدي الي اخ لي　　سليل مسك وورد
ارق من لفظ صب　　يشكو حرارة وجد
كأنه ، ان بحثنا ،　　بلا انتظار ووعد
فاخلع علي سرورا　　بكونك ، اليوم عندي

من وحي عمر بن الخطاب : قد روى علي بن سليمان قال : حدثني محمد بن مزيد قال : سمع العطوي رجلا يحدث ان رجلا قال لعمر بن الخطاب : « ان فلانا قد جمع مالا »، فقال عمر : « فهل جمع له اياما ؟» فأخذ العطوي هذا المعنى ، فقال :

ارفه بعيش فتى يغدو على ثقة　　ان الذي قسم الارزاق يرزقه
فالعرض منه مصون لا يدنسه　　والوجه منه جديد ليس يخلقه
جمعت مالا ، ففكر هل جمعت له　　يا جامع المال اياما تفرقه
المال عندك مخزون لوارثه ،　　ما المال مالك الا حين تنفقه

في صداقة الادباء : وذكر ابو الحسن احمد بن جعفر جحظة البرمكي ان ابن العطوي انشده قول ابيه عبد الرحمن (ذيل الامالي ، لابي علي القالي .. ص ٩٢):

احسن من غفلة الرقيب　　ولحظة الوعد من حبيب
والنقر والنغم من كعاب　　مصيبة القول والقضيب
ومن بنات الكروم راحت　　في راحتي شادن ربيب
كتب أديب الى اديب　　طالت به مدة المغيب
فنمقت كفه سطورا　　تنمق الصفو في القلوب
يا بادئا بالكتاب فضلا　　والفضل من شيمة الاديب
نحن على الود ، اي شيء　　اقبح من غادر اريب
منحت ضيفي عبوس وجهي　　وسائلي شدة القطوب
وعشت في الناس مستهاما　　يا أطوع الناس للرقيب
ان كان ودي لاهل ودي　　قصر من باعه الرحيب
وانت منهم ، فكن قريبا　　او نائيا وافر النصيب
وابل ما شئت وصف ودي　　تجده في ثوبه القشيب

في الرثاء : ومما انشده الاخفش ، عن كوثرة اخي العطوي ، في رثاء احمد بن ابي دؤاد الذي كان الشاعر قد اتصل به و «تقرب اليه بمذهبه وتقدمه فيه بقوة جداله عليه »، كما يقول الاصفهاني ، قول ابي عبد الرحمن العطوي :

احنطه يا نصر بالكافور　　وزففته للمنزل المهجور
هلا ببعض خصاله حنطته　　فيضوع افق منازل وقبور
تالله او من نشر اخلاق له　　يعزى الى التقديس والتطهير
حنطت من سكن الثرى وعلا الربى　　لتزودوه عدة لنشور
فاذهب كما ذهب الوفاء فانه　　ذهبت به ريحا صبا ودبور
واذهب كما ذهب الشباب فانه　　قد كان خير مصاحب وعشير
والله ما أبنته لازيده　　شرفا ، ولكن نفثة المصدور

ومن طريف ما نذكره ، في هذا المقام ، وقوعنا في خطأ نسبة هذه الابيات الى العطوي في رثاء اخيه كوثرة ، في كتابنا « ابن الرومي شاعر الغربة النفسية » (ط بيروت ١٩٦٩)، والصحيح انها في رثاء القاضي احمد بن ابي دؤاد ومرد هذا الالتباس الى اننا في احدى طبعات « الاغاني » كنا قد قرأنا قول الاصفهاني ، في مجال سرده لاخبار الشاعر. « فلما توفي احمد نقصت حاله . وله مدائح يسيرة ومراث كثيرة ، منها ما انشدنيه الاخفش عن كوثرة اخي العطوي»، وتلي هذه العبارة ابيات العطوي الرثائية ، فحسبناها في رثاء اخيه كوثرة.

لكننا لاحظنا في طبعات اخرى ، ومنها طبعة «بولاق» التي بين ايدينا ، سقوط لفظة «فيه» من عبارة « وله فيه مدائح يسيرة ومراث كثيرة »، فظهر لنا ، بعد فوات الاوان ، وجه الصواب ، وحسبنا استدراك الخطأ ، بعد حين ، بدلا من الاغضاء عنه ، والابقاء عليه .

سنة

قالوا : فؤادك مولع بهوى الحسان ، فقلت : انه
لما الظباء بدون لي يخطرن دلا ، صدتهنه
أدغمتهن صبابة في القلب ادغاما بغنه
ففتكن بابن اضالعي من قبل ان يشقى بهنه
وقضى شهيدا في الهوى شأن القلوب بلا اعنه
وهلاك أهل الشعر من فتك العيون النجل سنه

محمد العدناني

ونضيف سببا آخر لوقوعنا في هذا الالتباس ، وهو الابهام الذي اكتنف ورود هذه الابيات ذاتها في الجزء الثاني (ص ١٠٣ و ١٠٤) من كتاب «الامالي» لابي علي القالي، اذ قال القالي:

« وانشد محمد بن السري السراج لابي عبد الرحمن العطوي »، ثم ذكر الابيات ، دون ان يوضح المناسبة او الموضوع الذي تدور حوله ، ولكن الابيات المذكورة في «الامالي» تختلف في بعض الفاظها عما هو مذكور في «الاغاني» فلا ضير من اثباتها ، مجددا وفقا لرواية القالي :

حنطته يا نصر بالكافور وزففته للمنزل المهجور
هلا ببعض خلاله حنطته فيضوع افق منازل وقبور
تالله لو بنسيم اخلاق له تعزى الى التقديس والتطهير
طيبت من سكن الثرى وعلا الربى لتزودوه عدة لنشور
فاذهب كما ذهب الوفاء فانه عصفت به ريح صبا ودبور
واذهب كما ذهب الشباب فانه قد كان خير مجاور وعشير
والله ما ابنته لازيده شرفا ، ولكن نفثة المصدور

وان من مراثي العطوي لاحمد بن ابي دؤاد، ما انشده له الاخفش ، حيث يقول :

وليس صرير النعش ما تسمعونه ولكنه اصلاب قوم تقصف
وليس نسيم المسك ريا حنوطه ولكنه ذاك الثناء المخلف

ويذكر القالي في «الامالي» (ج١ ــ ص ٣٢) شعرا رثائيا للعطوي فيقول :

وانشدنا الاخفش للعطوي يرثي اخاه :

لقد باكرته بالملام العواذل فما رقأت منه الدموع الهواطل
أيقنى جميل الصبر من هد ركنه وهيض جناحاه ، وجد الانامل
أمن بعد ما ذاق المنية احمد تطيب لنا الدنيا وتصفو المناهل
كان لم يكن لي خير خل وصاحب وخير خطيب تتقيه المقاول
كان ابا العباس لم يلق ضيفه ببشر ، ولم يرحل بجدواه راحل

ونحن لا نستبعد ان يكون هذا الرثاء ، هو الاخر، في احمد بن ابي دؤاد ، لقرائن كثيرة غير خافية في الابيات، الا ان يكون للعطوي (وربما للاخفش) اخ اسمه «احمد».

في الرد على هشام : وقد ذكرنا ، في مطلع هذه الدراسة ، ماورد في كتاب « الشعراء » لمحمد بن داود عن كون العطوي صاحب «فن من الشعر لم يسبق اليه ، ذهب فيه مذهب اصحاب الكلام ، ففاق جميع نظرائه ..»

ومما ذكره ابو علي القالي في « الامالي»(ج٢ــص٢٣٢) تحت عنوان « قصيدة العطوي في الرد على هشام ومن قال قوله »: وانشدنا علي بن سليمان بن الفضل الكاتب للعطوي:

جل رب الاعراض والاجسام عن صفات الاعراض والاجسام
جل ربي عن كل ما اكتنفته لحظات الابصار والاوهام
برىء الله من هشام وممن قال فيه مثل قول هشام
اي زاد تزودته يداه عامدا من كبائر الاثام
سوف تلقاه ، حين يلقاه نار تتلظى لاهلها بضرام
كم شديد العناد للاسلام بين ابناء ملة الاسلام
كهشام ، فانه خلع الربقة من كل حرمة وذمام
قل لمن قال قوله ورآه خير مسترشد ، وخير امام
لم انكرت ان يكون مصيبا في مساعيه عابد الاصنام
لم انكرت قول من عبد الشمس وصلى للانجم الاعلام
ان ترم بينهما انفصالا فهيهات لقد رمت منه صعب المرام
ما الدليل المبين عن حدث العالم الفصح به لدى الاقوام
لا دليل فلا ترمه وقد قلت، كبعض الانام رب الانام
لم ترد غير قدمة الخلق فاقصد قصده ، دع مناقضات الكلام

وبعد ، فهذه طرف من حياة محمد بن عبد الرحمن العطوي ، الشاعر البصري العباسي ، ونماذج من اشعاره واقواله التي ليس له منها قول يسقط ، كما قال « المبرد»، ولولا ان منشيء « الاديب » الاستاذ الكبير البير أديب اغراني بجمع بعض تراثه ، لكان الحرج ، واقله حرج الانتساب للاسرة ذاتها ، وقف حائلا دون انصاف هذا الشاعر والتعريف به .

فوزي عطوي



الدكتور عبد السلام العجيلي

العجيلي بين الطب والادب

بقلم حلمي محمد القاعود

• • •

اشتهر عن بعض الادباء او معظمهم انهم لا يلقون اهتمامهم لما يدور خارج نطاق الادب ابداعا وفكرا ، ولو كان عملهم الذي يقتاتون منه ويعيشون عليه ، وقد شهد لنا التاريخ المعاصر بعض الامثلة التي عاشها بعض ادبائنا المبرزين وجر عليهم استغراقهم في عالم الكلمة الكثير من المتاعب والمشقات ، لان ذلك الاستغراق دفعهم الى ما يسميه القانون اهمالا في العمل . ولعل اشهر هذه الاسئلة ما نقل عن الاستاذ ابراهيم المصري الاديب المشهور ، وكان موظفا صغيرا في احدى المصالح الحكومية ، كان يستغرق في القراءة والتأمل الادبي حتى تعرض للفصل من عمله ..

والاديب اذا لم يجد عملا يتلاءم مع حرفة الادب كالصحافة او التحرير في وسائل الاعلام المختلفة ، فانه يؤدي عمله الادبي بصعوبة بالغة ، لان الجو الملائم لن يتوفر له عندئذ .. ولن تكون لديه القدرة على العطاء ، وقد فكرت بعض الحكومات في حل هذه المشكلة حين اعطت بعض الادباء النابهين فرصة التفرغ لفترة زمنية يستطيع خلالها ان يمارس الكتابة لابداع عمل ما . ولكن هذا التفرغ المحدود لن يحل مشكلة الموهوبين من الادباء بحال من الاحوال ..

بيد اننا ازاء الدكتور عبد السلام العجيلي ، سوف نجد هذه المشكلة التي تعترض الموهوبين من الادباء ليست بذات موضوع رغم ما يبذله العجيلي من جهد شاق ومضن كل ساعات النهار ، وما ينتظره في ساعات الليل من مفاجآت بحكم عمله كطبيب ، كان وحيدا لفترة طويلة في المنطقة التي يقطن فيها ، وما يقوم به من رحلات كثيرة داخل الوطن وخارجه .

ان طبيعة العجيلي الميالة للعزلة والتفرد قد ساعدته على ان يتجاوز مشكلة الوقت ويتخطاها ، وان كان في اعماقه يطلب المزيد من الوقت والفرصة ليكتب كثيرا ، ويتأمل اكثر ..

وهذه الطبيعة الميالة للعزلة والتفرد جعلته يحد من ارتباطاته خارج الاسرة والبيئة ليفرغ الى عمله الذي يؤديه بمهارة واتقان ، وابداعه الذي يمارسه بموهبة واقتدار . . انها طبيعة منظمة على اية حال ، تقسم وقتها بالقسطاس بين العمل والادب ، وبين الحياة بمشاغلها ومطالبها ، والفكر بأشجانه وهمومه .. وآماله ومطامحه .

ولكننا الان مطالبون بأن نلقي الضوء على حياة العجيلي الطبيب وعلاقته بالادب من خلال الطب مهنة وممارسة ، ونرى الى اي حد استطاع ان يفيد منها او يفقد بسببها في بلدة « الرقة » الرابضة على نهر الفرات العظيم .

والعجيلي ـ بداية ـ يملك موهبة الاديب ، وقد عرفناه منذ صباه يتعرض لحركة جزر ومد في حياته التعليمية ، وتعارض في الرغبة بين اهله وبينه .. حتى استقر اخيرا طالبا في مدرسة الطب بمدينة دمشق الفيحاء .

خلال فترة التلمذة الطبية استطاع العجيلي ان يحس بنفسه شاعرا ناشئا ، وقصاصا مقلدا ثم مبدعا .. فيكتب بعض القصص القصيرة للمسابقات الادبية ، ثم يكتب مقامات قصصية يستلهم معظمها من واقعه في حياة الطب الجديدة التي يعيشها (١) . وقد تأثر في المقامات تأثيرا واضحا بحياة التلمذة وما يجري فيها بالاضافة الى انها كانت تجربة زاوج فيها بين جنسين ادبيين ، اقصد الشعر والنثر معا ، مقتفيا في ذلك خطى الهمذاني والحريري وغيرهما .

بيد ان العجيلي بعد ان انتهى من دراسة الطب ، وخروجه الى الميدان العملي ، والممارسة الفعلية لمهنة الطب بدأ يتقدم بعجلة تزايد به نحو ترسيخ موقفه كاديب ، يزداد اتقانا في مجال القصة القصيرة ، والمقال ، والمحاضرة ، بعد ان هجر الشعر او كاد مخلفا ديوانا وحيدا اسماه « الليالي والنجوم » . وان كنا لا نستطيع الحكم عليه كشاعر ـ حكما متكاملا ـ لاننا لم نطلع هذا الديوان ، كما ان بعض القصائد التي طالعناها لا تكفي ايضا للحكم على شاعريته ، بيد انه كأي فنان تعامل مع الجنس او الاجناس الادبية الاقرب الى روحه وذهنه ووجدانه ، ومن ثم رأيناها تبرز في دنيا القصة القصيرة بالذات ، وفي الرواية بعد ان دخل مرحلة الكهولة وطلع علينا برائعته المسماة « قلوب على الاسلاك (٢) »

الواضح في مسيرة العجيلي الادبية استفادته من مهنته كطبيب ، وقد استخدم من هذه المهنة معينا لاينضب لكثير من كتاباته التي امتع بها القراء ، وكانت في عمقها البعيد رؤية اجتماعية ـ شئنا ام ابينا ـ لحاضر قطاع من السكان في موقع عربي ، قد يتماثل كثيرا مع بقية المواقع.

لقد بدا العجيلي مهنة الطب في بلدته « الرقة » على نهر الفرات ، بالقرب من الحدود العراقية السورية التركية وتقع في منطقة صحراوية بدوية ، خلت من الاطباء في زمنه فكان الطبيب الاوحد داخل دائرة قطرها يزيد عن المائة كيلو متر في بعض الاحيان ، وكان المرضى يأتونه من الصحراء في الدولتين المجاورتين حيث تتلاشى الحدود ،في الواقع وتبقى على الخرائط فقط . الا ان العجيلي لعب دورا كبيرا في علاج اهل بلدته « الرقة » بالدرجة الاولى ، ويحكي لنا كثيرا من المفارقات التي حدثت له لتوحده او وجوده كطبيب وحيد هنالك ـ من ذلك مثلا ، ما حدث في ليلة عيد ، حين اضطر للقيام بواجبه ازاء ثلاث سيدات حوامل جاءهن المخاض في لحظة واحدة ، وكان من اللازم عليه ان يعالجهن معا مع اختلاف اماكنهن فهذه في عيادته ، واخرى في اقصى « الرقة » ، والثالثة في مكان بعيد عن الاثنتين ، مع افتقاد سيارة او وسيلة مواصلات وكانت ليلة سهر مضن حتى مطلع الصباح ـ صباح العيد ـ (٣) يقول عنها :

« كانت ليلة عيد كما قلت . عدت الى داري مجهدا ، ولكني لم استطع النوم.لم يكن هنالك وقت للنوم،فقصدت المسجد عند طلوع الشمس لاشارك المصلين صلاة العيد، متعبا ، غير ان نفسي ، كانت مملوءة بالرضى ، وبالسعادة لشعوري اني بوسائلي القليلة والفقيرة ، وبعملي الزهيد ، قد اعدت في هذه الليلة الطمأنينة والبشر الى نفوس افراد اسر ثلاث ، ومسحت الالم والقلق عن مشاعر امهات ثلاث وازواجهن ، واعنت ثلاثة مواليد جدد على ولوج باب الحياة بيسر وصحة . وكان هذا لي ، بعد تلك الليلة الليلاء ، عيدا آخر » .

ومع الوحدة وافتقاد المواصلات في « الرقة » ، فان العجيلي يرصد اشياء اخرى اشد قسوة وعذابا بالنسبة له وللمجتمع : انها تتمثل في الجهل، والدجل ، وقلة الوعي.. لقد سجل ذلك في سلسلة من المقالات الممتعة اسماها « عيادة في الريف » يستعد لاخراجها في كتاب بهذا الاسم ويمكننا ان نأخذ امثلة سريعة على بعض همومه التي ارقته نتيجة الاشياء التي رصدها .

دخل عليه بدوي ومعه اهله ، كان امر الرجل مفجعا، في جنح الليل ـ ليل البادية ـ التي يقطنها هذا الرجل تعرض لعضة حيوان مسعور مصاب بالكلب ، وكان سهلا ان ينجو الرجل من هذا المرض المخيف لو انه عرض نفسه على طبيب في الاسبوعين الاولين من حادثة العض ، وكان سيعالج الرجل مجانا ويتوقف نمو الداء في دور الحضانة ويسلم المريض . ولكن هذا المريض لم ير طبيبا لان اولاد الحلال ـ كما اسمتهم زوجته ـ اشاروا على اهله بأن يتداوى عند « الجنيدات » . والجنيدات فرع من عشيرة مشايخ ينسب الناس اليهم القدرة على شفاء المصابين بالاضطرابات العصبية . ويداوون المرضى بالقراءات او بحفلات الذكر او بالتقييد بالحديد والكي بالنار والصفع بالنعال ، وكان ان عالجوا هذا البدوي بشعوذاتهم فاستفحل المرض، واصيب الرجل بعذاب العطش والخوف من الماء والهيجان والاختناق ثم الموت الذي لا نجاة منه .

لقد لجأ اهل الرجل الى الدكتور العجيلي بعد ستة وخمسين يوما ، كان من المستحيل على الطب ان ينقذ الرجل لان الداء قد استفحل ، ولم يبق للمريض الا ايام قليلة ثلاثة او اربعة اذا كثرت . ولكن الرجل فارق الحياة بعد يومين « ضحية عضة الحيوان المسعور ، وضحية الجهل المطبق » كما يعلق العجيلي(٤) على هذه المأساة !

ويقول العجيلي ايضا خلال روايته لهذه الحادثة، قلت لاهل المريض ، اماكان في وسعكم ان تضيفوا الى معالجة الجنيدات معالجة طبية مجانية تتولاها الدولة في كل مكان. وبطيبة خاطر ، ولا تكلفكم فلسا ؟ قلت هذا وانا اتذكر ما قاله عمر بن الخطاب حين مر بأحد المسلمين فرأى ابله مصابا بالجرب ، فسأله : بماذا تتداوى اباعرك من جربها؟ قال الرجل اني ادعو الله لها . فقال عمر رضي الله عنه : اجعل مع دعائك شيئا من القطران ! ماذا اذن لو جعل هؤلاء الناس مع دعاء الجنيدات وتعزيماتهم تلك الحقن التي انقذت حياة عشرات الالاف من الناس في مختلف بقاع الارض ، منذ اكتشف باستور اكتشافه الرائع في معالجة داء الكلب ؟!.

لا شك ان العجيلي يطمح الى سيادة الوعي والفهم لدى جمهرة الناس ، ويؤرقه كطبيب وانسان بالدرجة الاولى ، ان يتجه الناس هذا الاتجاه المتخلف في علاج امراضهم واصاباتهم . ومن ثم فانه يحمل حملة ضارية على الدجل والدجالين ، ويحكي كثيرا من نوادرهم في سلسلة « عيادة في الريف » وكذا في محاضرته الاولى بكتابه « السيف والتابوت » والى قطع ادبية رفيعة بكل مقياس . وهو يرى ان في الريف عوامل كثيرة تجعل المرضى ، بكل انواع المرض ، يتأخرون في استشارة الطبيب او لا يستشيرونه ابدا . ويقدم لنا العجيلي نماذج من الدجالين الذين يجعلهم درجات ، فهناك فئة خطرة من المتطببين المشعوذين الذين لا يقنعون بكسب لا مشروع ، بل يغطون هذا الكسب بتصرفات لاانسانية مجرمة (امثال « على الشداخ الذي احتجز طفلا مريضا ثلاثة ايام استفحل خلالها الداء في الجسد الصغير الغض ، وحولت فيه جراثيم المكورات السحائية سائله الدماغي الشوكي الى مادة قيحية) وهناك ايضا فئة اقل خطرا بمقياس مدى الضرر الذي يلحقونه ببسطاء الناس ، فهم اقرب الى الانسانية من بعض اخر ، لمجرد انهم اقل ضررا بعامة قاصديهم واهون شرا (امثال « السيد حسين » كان ممرضا اقتبس من الطبيب العسكري

الذي لازمه في الحرب العالمية الاولى طريقة معالجة «البجل» بحقنة من « النيوسلفرسان » الدواء الزرنيخي الالماني المشهور . وكان رغم استغلاله يبدو قنعا نسبيا حين يصبح حذرا في التطبيب ، فلا يعالج الا المرضى بالبجل) وهناك فئة اخرى مجرمة ايضا (امثال سارة التي اختصت باخراج ما يسمى « بالواجعة » من العين ، تزعم لمرضاها ان جسما غريبا دخل العين فأحدث بها الالم ، وانها قادرة على اخراج الجسم الغريب بلسانها ، وحين تدور بهذا اللسان القذر في عين المريض ، تكون مهمة الطبيب معالجة المريض من الالتهابات التي خلفها هذا اللسان ، وهي تؤدي في بعض الاحيان الى تهديد المريض بتقرح القرنية او فقدان البصر)(٥)

يقدم العجيلي كثيرا من الحكايات التي تدل على سيادة الجهل والدجل، ويكتب عنها بالاسى الذي يستشعره الفنان الانسان ــ انه بالطبع يستفيد بمادة ثرة تغني أدبه وفكره، وتشبع ميله الى الكتابة والابداع ، بيد ان ما كان يود ان تكون بلده، او يكون الناس في بلده، على هذه الحال الحزينة.

انه ينظر الى مشكلة المرض المتلازمة مع الجهل والدجل في اطار رؤية انسانية شاملة تدفعه احيانا الان يكون غريبا بين زملائه من الاطباء ، فنادرا ما نعثر على طبيب ينظر الى القضايا الانسانية من خلال مرضاه، نظرة موضوعية ترتكز على تغليب المصلحة العامة قبل المصلحة الخاصة . فهو ــ اي العجيلي ــ لا ينكر ان الناس تشكو من الاطباء ، ومن قسوتهم في المعاملة وتخاذلهم عن اداء ما هو فرض عليهم ، وعن جشعهم واثرتهم. يقول العجيلي: «واقرأ في الصحف احيانا شكوى لمواطن زار طبيبا فلم يوله كل الاعتناء الواجب عليه نحوه ، او انه لم يستقبله بالسرعة التي توفر عليه وقته ، وقت الشاكي ، المعروف انه من ذهب ، او انه كبده ما لا يطيق من اجور المعاينة واثمان الادوية ، او لغير هذا وذاك ، فاجد حولي كثيرين يؤمنون على شكوى الشاكي ويمضون في تعداد شكواهم في اطبائهم (٦) .

ويبدو ان الشكوى من الاطباء والطب في مصر اوضح منها في اي مكان اخر خاصة في الاونة الاخيرة ، بعد اشتداد موجة الغلاء ، ورفع سعر الكشف الطبي لدى جميع الاطباء بلا استثناء ، حتى ما يأخذه المرضون الذين يعملون لديهم وما زال بعض الصحفيين عندنا يحملون على هذه الظاهرة المسماة « ملائكة الرحمة » ولعل اخر مظهر من مظاهر التخاذل الطبي في مصر ، هو موت الشاعر «محمد الجيار» الذي لقي ربه خلال شهر ــ ابريل ١٩٧٥ ــ اثر نزيف في معدته ، واصر المسؤولون في المستشفى على دفع ثلاثين جنيها قبل اسعافه ولما لم يجد اهله وذووه المبلغ ، نقلوه الى القصر العيني ، وكان الشاعر في النزع الاخير بعد ان فقد كثيرا من دماه ، فلم يجد معه أي اسعاف ! (٧)

بيد ان العجيلي ينظر الى الموضوع نظرة اكثر موضوعية حين يرى ان للاطباء مشاكلهم « وكل طبيب مثلي في جعبته الكثير من دواعي التذمر والشكوى . فأينا المحق : الاطباء ام المرضى؟ (٨)»

ومع هذا فان العجيلي لا يكف عن انتقاد كثير من التصرفات التي يربأ بالاطباء عن ممارستها . يستنكر نصيحة استاذ له في كلية الطب بعدم التهاون في تقدير قيمة الخدمات التي يؤدونها للمرضى وعدم اجابة سائل في قارعة الطريق او تقديم استشارة طبية دون قبض الثمن ، لان الطبيب ــ في نظر الاستاذ الناصح ــ قد تحمل وسهر وانفق من عمره وماله ، ولا بد ان يدفع الناس (٩) .

ولا تخلو حياة الطب بالنسبة للعجيلي من طرائف تثير الضحك احيانا والمرارة احيانا اخرى ، انه يتحدث عن بعض فلاحي البادية حين ينادون على الطبيب باسم «التراكتور» بدلا من الدكتور ، ويسمون بالمقابل الجرار الزراعي بالدكتور! ويعلق العجيلي على هذا الخطأ بأنه جدير ان يدعو الاطباء الى الفخر لا الى الانزعاج والضيق حين يقول البدوي مثلا: « بل دكتور قادر على فلاحة ثلاثة دونمات من الارض في يوم واحد (١٠) » .

يسأل رجلا اتى بولده المريض : متى مرض ابنك يا ابا غازي ؟

ــ منذ ثلاثة ايام .

ــ ولماذا لم تأت به الى العيادة اول امس او امس ؟

ــ كنا انا والامراة متخاصمين ولم نصطلح الا هذه الليلة . منذ نصف ساعة !

قال ابو غازي هذا واغضت زوجته بطرفها حياء في نفس الوقت . فحرت ــ يقول العجيلي ــ بين ان انفجر غيظا وبين ان اضحك وان ارجو ابا غازي وامثاله من المتخاصمين وزوجاتهم ان يصطلحوا واياهن في النهار او في اوائل الليل ، انسانية منهم ورحمة بنا نحن الاطباء (١١).

وحين يسود اللغط والفوضى بين مرضى العجيلي في قاعة الانتظار بعيادته ، ويضيق بهذا اللغط ، يضطر الى اسكاتهم بطريقة تثير الضحك ، حين يضع في افواههم الترمومترات لاسكاتهم وعلى ذكر الترمومترات فان ممرض

(١) عبد السلام العجيلي ــ المقامات ــ طبعة خاصة، دمشق ١٩٦٣

(٢) عبدالسلام العجيلي ــ قلوب على الاسلاك ــ الاهلية للنشر والتوزيع ــ بيروت ١٩٧٤.

(٣) مجلة «طبيبك» العدد ١٩٨ ــ بيروت ــ فبراير ١٩٧٣

(٤) مجلة «طبيبك» العدد ١٩٣ ــ بيروت سبتمبر ١٩٧٢ .

(٥) مجلة «طبيبك» العدد ٢١١ ــ بيروت ــ مارس ١٩٧٤.

(٦) عبد السلام العجيلي ــ السيف والتابوت ــ دمشق ١٩٧٤ ــ ص ١٢ .

(٧) المصور ــ مقال صالح جودت « حاجة تكسف » ــ القاهرة ١٧ــ٤ــ١٩٧٥.

(٨) السيف والتابوت ١٣.

(٩) مجلة «طبيبك» العدد ٢١٠ ــ بيروت فبراير ١٩٧٤.

(١٠) السيف والتابوت ٢٤.

(١١) السابق ١٤ .

(١٢) السابق ايضا ١٥ــ١٦

(١٣) السابق ٤٠ــ٤١

(١٤) السابق ٢٨ .

(١٥) الديار العدد ٧١ ــ بيروت سبتمبر ٧٤ .

(١٦) «طبيبك» ــ العدد ٢٠٤ اغسطس ١٩٧٣.

(١٧) طبيبك ــ العدد ١٩٥ نوفمبر ١٩٧٢.

العجيلي وضع ميزان الحرارة ذات مرة تحت لسان مريض وطلب منه ان يطبق عليه فمه ، فأمسك المريض الميزان بأصابع يده والتفت يسال الطبيب : « أقرطه او أسرطه ؟ » يقول : هل اعلكه وامضغه ثم ابلعه ، ام ابلعه راسا بدون مضغ ؟! ذلك المريض كان معتزما على بلع الميزان ، ولكن الذي لم يكن يعرفه هو الطريقة السوية للبلع التي يستفيد احسن استفادة من استعمال هذا القضيب اللامع الذي ظنه دواء يبلع ويهضم ! وهو لهذا سأل : أقرطه او أسرطه؟ ويعلق العجيلي على ذلك بأن زملاءه في المهنة في دمشق وحلب وغيرها من مدن سورية آمنون من الوقوع على مريض مثل هذا (١٢) .

لا نستطيع ان نستطرد اكثر من هذا مع طرائف العجيلي التي يجدها مع مرضاه ، بيد انه يعود الى النظر برؤيته الشاملة والموضوعية فيعلل لماذا كان الاطباء في بلادنا اسعد حظا ــ او هكذا يعتقد غيرهم ــ من بقية الناس ويرجع ذلك الى التخلف الذي نعيشه في بلادنا ، ففي بعض البلاد يكون الطبيب مثله مثل الخادم في المطعم او الساقية في المشروب ، يعطي كل امكانياته في خدمة الجماهير ، كالداحة وله مثل هذه وذلك، حقه في ان يأكل ويشرب ويجد المسكن المناسب ، اذا توفر ذلك المسكن ، ويقول العجيلي ان الراتب الشهري للطبيب المبتدىء لا يفوق راتب ساقية المشرب المبتدئة بكثير (١٣) .

اما مسألة الدجل والشعوذة فيرى العجيلي اننا في الشرق والغرب سواء ، فكما يوجد هؤلاء هنا ، يوجدون هنالك ايضا ، ففي فرنسا اليوم ثمانية وثلاثون الف طبيب ممارس ، وفيها مقابل هؤلاء ، اربعون الف مشعوذ بدجل في الطب . (١٤)

ان معرفة العجيلي بهذه الاحصائيات وتلك الظروف التي تحيط بالطب والاطباء تعود الى طبيعته كاديب قارىء بالدرجة الاولى ، فهو لا يكف عن القراءة بكل اشكالها ، ولكنه بالطبع يركز بالدرجة الاولى على متابعة كل واحدث ما وصل اليه العلم في مجال تخصصه ، ولعل هذا ما يؤرقه لانه يضيع كثيرا من وقته الذي يتمنى ان يقضيه في عالم الادب قراءة وكتابة ، وفكرا وابداعا .

سأله الاستاذ فاروق البقيلي محرر مجلة « الديار » (١٥) عن نوع متاعبه فقال :

« عملي كطبيب في بلد صغير يستغرق وقتي بصورة دائمة ومستمرة ، ليس هناك يوم في حياتي لا اعمل فيه لاكثر من عشر ساعات . ومن ثم فان هناك ايضا مشاغل اجتماعية لانسان مثلي في هذا البلد الصغير . ومنها القراءة العلمية بصورة خاصة لمتابعة التطورات في النواحي العلمية الكثيرة : لان هذا من صميم عملي . بالاضافة الى قراءاتي في الادب والسياسة والاجتماع بلغتين . فانا تصلني ثمان وعشرون مجلة بصورة منتظمة من كافة البلاد العربية والاوروبية . ومن ثم فانا رجل مغرم بالاسفار . انها تتيح لي فرصة الراحة من عملي المنهك . وهي ايضا تأخذ من وقتي الشيء الكثير » .

ان العجيلي لم يغرق في الادب ويترك الطب مهنته الاساسية ومصدر رزقه الاساسي، اكتفاء بما حققه من شهرة ومجد ادبيين ، بل انه كلما تقدم به العمر كلما أمعن في الاهتمام بمهنة الطب فكرا وسلوكا ، لانه يرى ان الطبيب محتاج الى تنمية ثقافته العلمية باستمرار ، كما اتضح من الاقتباس السابق ، ولان كثيرا من الاشياء المعروفة للاطباء قد تخالف الواقع او هي في حقيقتها تخالف ما تعارف عليه الاطباء ، ويروي ذلك ــ وهذا من خصائصه الموضوعية ــ قصة رجل ضرب بعصا ، فلم تجرح او تكسر عظاما في الجمجمة ، فشخص الاطباء حالته فلم يجدوا شيئا يوحي بأثر تلك الضربة ، وفسروا وفاة الرجل بعدئذ بالحالة التي تعتري كبار السن وبمضاعفات الامراض التي تعيش معهم، ولكن ابناء الرجل الحوا بضرورة الكشف على ابيهم ، وبعد الفحص الدقيق والتشريح تبين ان العصا احدثت تمزقا ضئيلا في احد الاوعية الدقيقة في سطح الدماغ وكانت هذه حقيقة لا بد من الاعتراف بها . «وكانت درسا جديدا او تذكيرا بدروس سابقة لنا جميعا في ان لاتكون ثقتنا بفحوصنا السريرية مهما كان وراءها من علم وتجربة ، وبفحوصنا المخبرية مهما كانت ادواتها دقيقة وعصرية ، ان لا تكون ثقتنا بكل هذه الفحوص وتلك ثقة مطلقة . فالجسم الانساني يظل دوما قادرا على ان يخبىء لنا من المفاجآت ما يقف امامه علمنا حائرا وتقف خبرتنا وتجهيزاتنا عاجزة » (١٦) .

يظل العجيلي موضوعيا حين يتواضع ، ويتمسك بالبقاء في بلدته « الرقة » ليعالج اهلها ، ولا تبهره اضواء المدن او العاصمة ، ان قصة لقاءه « بغابي مورلاي » الممثلة الفرنسية الشهيرة كان من الممكن ان تكون عادية لطبيب ريفي يريد الخروج الى العاصمة ، ولكنه ما فعل .

وصف « لغابي مورلاي » علاجا افادها ، فاستقبلته لتعبر له عن شكرها ، حين نجح علاجه دون علاج اطبائها . وسألته عن « الرقة » ، وتمنت لو كانت قريبة من باريس ليظل يعالجها ، ولكنه سر لنجاحه ، ومازحها طالبا ان يضع بطاقته وتحت اسمه الطبيب الخاص « لغابي مورلاي» .. ولكنه لم يفعل ، لان بطاقته لا تحمل في الواقع غير اسمه وحده ، مجردا من الالقاب والاوصاف (١٧) .

وقد شبه العجيلي بسومرست موم الكاتب الانجليزي الشهير ، ولكنه ما قبل هذا التشبيه ، كان « موم » قصاصا وروائيا شهيرا ، وكان قبل ذلك طبيبا ، واشتهر ايضا بالتجوال والرحلات ، كما العجيلي تماما ، ولكن العجيلي يرفض المقارنة عن موضوعية شديدة ، تقول ان كلا منهما يختلف عن الاخر تمام الاختلاف في كل شيء ، وانه يرى ان يكون هو هو ، ولا شيء سواه .

ويظل العجيلي بعد ذلك الطبيب الذي انتفع بروح الاديب وانسانيته في علاج مرضاه والتعامل معهم ، هذا الاديب الذي امتاح من واقع مهنته الطبية الكثير من الافكار لخدمة الانسانية في كل مكان ..

حلمي محمد القاعود **مصر ــ مرقص بحيرة**



وديع فلسطين

وديع فلسطين بين العطاء والحرمان

بقلم الدكتور محسن جمال الدين

* * *

كان من نتائج سفرتي (الفارابية) التي كلفتني بها وزارة الاعلام العراقية مقدرة مشكورة . لامهات العواصم العربية : دمشق ـ القاهرة ـ بيروت ، في تشرين الاول من العام ١٩٧٤ للبحث عما يخص « الفارابي » في الدراسات الحديثة .

كان من حصيلة ذلك ، ارباحي المعنوية ، التي كسبتها من اطلاع علمي على مجموعة من الدراسات والابحاث والمخطوطات العربية ، في بعض خزائن سورية ومصرولبنان وعلى دور الكتب فيها . مع تعارفي الشخصي مع نخبة من رجالات الفكر والادب والعلم ، الذين سبق وقرات لهم وراسلتهم . وصح لدي المثل القائل «ليس الخبر كالعيان» .

فالانسان احيانا عندما يكسب صديقا ، ويتعاون مع اخ عن بعد . قد تتبدل نظرته اليه ، وتتحول عواطفه نحوه نتيجة لما ينطبع في ذهنه من تصرفات ذلك الصديق سلبا ام ايجابا ، حسنا ام قبحا . وقد يعود منه وهو اشبه بقصة (الحريري) والمثل المشهور « سماعك بالمعيدي خير من ان تراه » .

ولقد وجدت ـ واشكر الله على نعمته ـ ان اغلب الذين اتصلت بهم ، هم من الصفوة الممتازة ، كانوا عند حسن الظن ، وموضع السرور ، وغاية الوداد .

والاستاذ الكاتب ، الاديب المعروف وديع فلسطين رسول المحبة العربية ، وصاحب الشمائل المصرية . من الذين ربحت بمعرفته كما ربح الاصدقاء الاخرون قبلي بصلتهم معه ، دون ان يتوخى ربحا ، او ينال نفعا .

كانت اول رسالة قد وصلتني من الاخ وديع فلسطين يومذاك من القاهرة وفيها معلومات طريفة عن التواقيع المستعارة في الصحافةالمصرية واعلامها . مماجعلني اعتبرها ذات قيمة نفيسة ، لما حوته من الاحاطة والتتبع والشمول . بعذوبة العبارة ، وجميل القول ، وسماحة الادب . فلا تكلف ولا تحذلق ، ولا منة ولا غرور ..

وقبيل مغادرتي الوطن العراقي اتصلت بالاخ الاديب الاستاذ وحيد ادين بهاء الدين حيث زودني مشكورا بزاد العناوين ، لجملة من المعارف هنا وهناك ، وهو خير رائد لهذا الخصوص ، وخير جواد لخدمة الادب واهله الطيبين .

وصلت القاهرة ونزلت بدارة (الاوبرا) فكان ثاني يوم من نزولي ، وانا قادم اليها من دمشق ان اتصلت بنخبة من الاصدقاء والزملاء المصريين منهم الاساتذة الكرام الافاضل : محمد عبد الغني حسن ووديع فلسطين وعبد العزيز سيد الاهل وحسين نصار وعبد العزيز الاهواني ومحمد عبد الله عنان وسعيد زايد ورشاد عبدالمطلب اضافة الى جماعة من الاخوان العراقيين المقيمين هناك للبحث والدراسة والعمل .

وقد حاولت ان احصل هاتفيا على الاستاذ وديع فلسطين . فتعذر علي ذلك اول الامر فهناك من اسمه وديع فلسطين غيره . ولولا لطف استاذنا شاعر الاهرام محمد عبد الغني حسن لما استطعت ان ارى الاستاذ فلسطين . وانا بشوق ساعة ذاك لرؤيته ، والتحدث اليه وشكره على معروفه .

زارني الاستاذ الوديع في الفندق مساء وهو ـ كما اعتقدت ـ لطف مع تواضع ، حديث طلي مع صراحة ، ثورة على الالم مع قناعة ، شكوى على الواقع بلا خنوع .

وكان الحديث يمر ونحن لا نشعر بضياع وقته ونتمنى امتداده . لان الاستاذ الوديع ممن يعطيك الرفد ، دون ان يتلقى الا القليل من العطاء . له من اللغة السهلة المطواعة ما شهدت به « المقطم » و « المقتطف » و « الاديب » . وله من الذاكرة الواعية المحيطة ، ما تظهره دراساته الممتعة في « احاديثه المستطردة » عن كبار الادباء ، والشخصيات والعلماء ، في عالم الادب ، والصحافة ، والعلوم في دنيا العروبة وعالمها الواسع من محيطها الى خليجها .

ان معرفة الاستاذ فلسطين وعمق تفهمه للغات العربية والانجليزية والفرنسية . ما يجعله في الطبقة الاولى من بين بعض مدعي الترجمة والتأليف الثقافي في العالم العربي اليوم .

دراسته في الجامعة الاميركية ، صلته بالحركة العلمية ، اطلاعه على عبقريات الثقافة الغربية من لاتينية وانكليزية . بوأته المنزلة التي لا يقدرها ـ مع مرارة الالم ـ

الا القليلون . وقد جهلت حقه « جامعة الدول العربية » وغضت الطرف عنه المحافل السياسية العالمية ، التي تزخر بالادعياء والجهلة .

ان الكتابة عن الاستاذ وديع فلسطين الذي وصفه بعض المنصفين في كتاباتهم وتقريظهم عنه لشيء يدعو الى التساؤل في نفوس الشاكين الجاحدين للعبقرية . فما هو الغرض من الكتابة اليوم عن هذا الاديب الذي اصابه الحرمان وقضى على ما يستحقه من منزلة ، وخير . جهل وجحود المسؤولين عن تقييم الادب ! في دنيا تسير مركبتها اليوم بالاغراض الذاتية ، والرغائب الانانية .

ان تقييم ما لدى الاديب من نتاج القلم ، ومن ثمرات الفكر لا يكون الا عند الناس المنصفين من النقاد ، واصحاب الضمائر الكريمة . انا لا ادري ــ ولا غيري يدري ــ سر محاربة مجتمعاتنا العربية ، لاصحاب العبقرية والنبوغ من ابناء بلادنا ــ فعوضا ان يؤخذ بأيديهم ، وتقدر مواهبهم ، وتنشر آثارهم ــ تراهم محاربين بين بائسين محرومين ولا ادري الكونهم قد فاقوا اغلبية جيلهم المتخلف بثقافتهم ، وبرزوا على اكثرية معاصريهم في معارفهم . ام انهم لم يستعملوا ذكاءهم وفطنتهم في الشرور والاثام ، والاباطيل والاوهام ؟ !

ان وديع فلسطين ايها الاخوة تنكر له الاقربون ، وجهل مقامه الابعدون . ولو اني اردت ان اكشف عما اصابه من منغصات الحياة التي سمعت عنها ، منه ومن غيره لحملت طاقة قلوب المحبين ، ما لا يستطيع حمله ولجرحت افئدتهم .

ومن أغرب القضايا التي لحقته وهو في بلد عربي بالشمال الافريقي ــ التهجير ، والمراقبة ، والتسفير ، وضياع اوراقه ورسائله وكتبه . دون عمل قام به يذكر ، او مخالفة ارتكبها . ومن المنغصات التي أصابته في بلده في فترة قريبة ، ماضية من الزمن (المراقبة) التي كانت تستدعيه ، و (الشرطة) التي كانت تسأله عن اسباب كثرة بريده الوارد اليه من اصحابه ومحبيه في الوطن العربي وديار المهجر . وكثيرا ما اضاع بعض الكتب المهداة اليه ، والرسائل النفيسة من كبار الشخصيات المعجبة به . في حين ان مهربي المخدرات يسرحون ويمرحون ، ويبنون القصور والعلالي !

كتب عن الاستاذ وديع فلسطين الكاتب المصري المنتج الاستاذ أنور الجندي في الاديب (يناير ١٩٦١ ص ــ ١٤) قوله :

« الاستاذ وديع فلسطين ، كاتب خصب الانتاج ، موفور الثقافة ، عميق أوجه الفكر ، من ابناء تلك المدرسة الوسطى التي تجمع بين القديم والجديد وثقافة الشرق والغرب على هدى وبصيرة » .

وبعد ان استعرض حياته الصحفية ، والثقافية ختم قوله « هذه صورة سريعة لشخصية مفكر عربي ممتاز جمع بين التبريز في ميدان الصحافة ، والكتابة ، والنقد ، والترجمة ، وهي شخصية ضخمة وخصبة ، تحتاج الى مزيد من الدراسات ، وهي ما زالت تشق طريقها الى مكانها الحق . »

وجاء بعده الاستاذ الكريم ابو طالب زيان وخص الاستاذ وديع فلسطين بمقالة في «الاديب» نوفمبر ١٩٦١ ص ــ ١٢ ومما جاء منها قوله وهو الذي زامله في القطم بين سنة ١٩٤٥ ــ ١٩٥٢ :

« عرفت الكاتب البليغ الاستاذ وديع فلسطين عن كثب ، اديبا لامعا ، وصحفيا بارعا ، يحج اليه ، ويطلب رأيه . »

وختمها بقوله : « ولقد تمكن بخلقه الطيب ، وعمله الغزير ، واريحيته المثالية من جمع هذا الشتيت المتفرق في كل الاصقاع في صعيد واحد . »

لقد قرأت الاستاذ وديع فلسطين في « المقتطف » سنة ١٩٤٣ ، ١٩٤٤ ، ١٩٤٥ . والسنوات التي اعقبتها في كتاباته الموضوعة ، والمترجمة ومنها :

ــ المجتمع والسياسة في الادب المصري الحديث .
ــ منهج جديد في كتابة التاريخ . ــ بين الادب والصحافة.
ــ خليل مطران . ــ سلامة موسى دعامة قوية من دعائم الفكر . ــ العلم والفلسفة . ــ العشائر العربية . وغيرها..

ومن ابرز مقالاته في « الاديب » وهي كثيرة متعددة الجوانب الثقافية :

ــ مع الصروفيين ــ يعقوب وفؤاد . ــ نظير زيتون.
ــ الغزو التتري لحصون الادب . ــ نفسية الكاتب . ــ مع الدكتور طه حسين . ــ فارس نمر . ــ حديث مستطرد عن الامير مصطفى الشهابي .

ومن مقالاته الطريفة في « الاديب » ديسمبر ١٩٦٠ ص ــ ٢١ . «علاقات الادباء في حاجة الى ناموس» . والمقال يصح ان يكون دستورا مبتكرا في الدراسات الادبية الحديثة المعاصرة ، والعلاقات الادبية بين جمهور المثقفين . تناول فيه الصلات الشخصية ، واهداء الكتب ، واستكتاب المقدمات ، والسرقات الادبية . واليك نموذج من قوله :

« يلوح لنا ان العلاقات الشخصية بين الادباء يعوزها ناموس مرعي ، يرسم لها التقاليد التي تتطور في ظلها . فما برحت هذه العلاقات متميزة بالتعالي والتشامخ في آن . وبالتحاسد والتباغض في آن اخر . »

وتابع قوله : « ومن ظواهر المرض النفسي في الادب استكبار الادباء الذين يصغرونهم سنا .. » وختم مقاله بقوله : « ان العلاقات الشخصية بين الادباء تحتاج الى تنظيم وتنقية حتى تصفو من شوائب الاستكبار ومراءاة الظروف ، وحتى تزول عنها آثار العلل النفسية . واذا كنت قد أوردت الحديث عن نفسي فشفيعي عند القارىء انني تحدثت عن تجربة شخصية ، وهي دائما ام التجارب . »

اما حصيلة الاستاذ الفاضل وديع فلسطين من التاليف فهي حصيلة متواضعة من الجمع ، كثيرة متناثرة

تجديد وفلسفة

الى هؤلاء الذين نعجز عن فهم ما ينظمون من احاجي والغاز

يا شاعر انسخف لا تبخل باجوبة — تجلو الطلاسم عن ارائك الغرر
هل جئت من عالم بالجن مزدحم — ام جئت من بابل ام جئت من سقر
نكاد نفهم ما في الهند من لغة — ولا نلم بما تلقيه من درر
ان كنت تكتب للاتي فصه وارح — اسماعنا الان من آثارك الاخر
واحفظ روائعها الجلى الى زمن — عرض التفاهة فيه غير محتقر
كأن ذهنك دهليز مسالكه — محمية بسياج الشوك والابر
او مصنع لم يدر في بال نابغة — ولا تخيله امكان مبتكر
يحول الخاطر السهل الرشيق الى — شيء من الخلط في شيء من الهذر
قاموس غيرك الفاظ محددة — والورد عندك في القاموس كالجزر
حجبت نفسك خلف الحرف فانبعثت — فينا الشكوك ولم نحقر ولم نجر
يستر اللص بالظلماء فعلته — كأن ذلك ينجيه من الخطر
فأي ذنب تداريه وتمعن في — ابعاده عن مدار السمع والبصر
ما العيب انك في التصنيف ضفدعه — العيب ان تتحدى وثبة النمر
ان كان شعرك تجديدا وفلسفة — كما زعمت بلا خوف ولا حذر
فما نقول لمجنون يطالبنا — بان يجازى بتمثال من الحجر
بيانك الفذ افكار مشردة — تسير سكرى بلا مرمى ولا وطر
لا انت تدرك مغزاها اذا اجتمعت — ولا المنجم مهما جد في الاثر

بوانس ايرس — الارجنتين — الياس قنصل

في المقالات والدراسات والترجمات . ومن آثاره الموضوعة والمترجمة ، المطبوعة :

— ١ — استقاء الانباء فن . — ٢ — قضايا الفكر في الادب المعاصر . — ٣ — صحافة الخبر . — ٤ — مسرحية الادب .

ان لدى الاخ (الوديع) الكثير من الرسائل الثمينة بينه وبين شعراء وادباء المهجر العربي . امثال رسائل الاخوان الاعزة : جورج صيدح — الياس فرحات — الياس قنصل — زكي قنصل ، الشاعر القروي وغيرهم ...

وبينه وبين اغلبية المثقفين في العالم العربي والغربي ولا اظن ان مركزا عربيا ثقافيا به صفوة متعلمة ومتأدبة الا وكان لاحد أفراده علاقة ، وصداقة ، ومراسلة ، مع الاستاذ وديع فلسطين .

واذا كان لي من كلمة اقولها في موضوع الصراحة والاخوة الصادقة له . هو ان يجمع دراساته في مجاميع ويوزع مواضيعها المختلفة ، ويضمها في كتب متجانسة الموضوع والمادة ، كي تسهل مطالعتها واقتناؤها . وان يسلط اضواء قلمه على قضايا الادب ، والادباء الذين عايشهم وزاملهم وعرفهم في دنيا «المقطم» العظيم وفي عالم «المقتطف» الخالد .

وان يترك لنا عالم (النعال) و (الكلاب) (فباتا) هي اجور بمعالجة الاول — وجمعية الرفق بالحيوان اجدر بالعطف على الثاني !! ولعل هذا من ثورة الالم في نفسه وردود الفعل فيها .

اما كليات الصحافة واقسامها في الجامعات العربية فهي ملامة مقصرة في حق الاستاذ (الوديع) وعليها الاستفادة من خبرته الصحافية ، وتجاربه الشخصية ، واطلاعه الموسوعي ، وترجماته الاصيلة .

رب : ادعوك ان تبعث الالهام في قلوب قومي وعقولهم كي يسبقوا الزمن ، ويسايروا الامم الناهضة في رعاية النابغين من اخوتهم — كالاستاذ وديع فلسطين — وهو الذي اعطى ومنح كثيرا ، ولم ينله منهم الا النسيان والحرمان .

بغداد — كلية الاداب — محسن جمال الدين



قطرة حنان

بقلم عبد العزيز الشناوي

فتح باب المستشفى الحديدي . . . تدفق الزائرون .. انفجار المصران الغليظ في بطن مريض .. راحت عيناه القلقتان تتصفح الوجوه .. لم تقعا على احد يعرفه . كيف أعود الى قريتي والتمورجي « نفض » جيبي من النقود التي كانت معي ؟

ترامى الى مسمعه عواء قطار . يوم ان هربت من القرية صعدت فوق سطح احد القطارات .. كيف ارضى بظلم اخي ؟ انا اعمل طوال يومي في الحقل وهو يقبض أجري وينفقه ثمنا لانفاس الهباب الذي يدخنه في مقهى خليل ابو شبانه ؟ كان املي ان اهاجر الى البندر .. اشتغل في مصنع مثل علوان ابن اخت شيخ البلد .. ضحكت له الدنيا .. ودع الفأس والمحراث الى المدينة والماكينة .. ارتدى عفريته انيقة قطع النقود الفضية توشوش بشخشختها جيبه .. لكنني وجدت الابواب موصدة امامي . أصبحت تائها .. خاب حلمي ! لو رضيت بحظي من متاع الحياة وبقيت في القرية ؟ ماذا فعل اخي عندما اكتشف هربي ؟ هو الذي كفلني ورعاني بعد موت والدي وانا طفل صغير .. كيف اواجه نظراته الشامتة ؟ كيف تلتقي عيناي بعيون اقاربي ؟

زحفت قدماه .. ركضت الافكار في رأسه ..

قال لي أخي ذات ليلة :

ــ انك كالسمك .. لا تستطيع ان تعيش بعيدا عن الساقية والارض

وقف بجوار باب المستشفى .. كيف استيقظ فأجد نفسي خارجها ؟ لماذا لم ينتظر الطبيب حتى تظهر نتيجة الاشعة ؟ كنت تخجل ان تطلب منه المزيد من العناية والعلاج .. تعلم انك تعالج مجانا ومن الجحود ان تسرف في الشكوى .. لكنني على يقين ان المريض الجديد الذي احتل سريري ذهب الى الطبيب في عيادته ودفع « الفزيتا » قبل ان يأتي الى المستشفى

وقع بصره على شاب مريض يساعده والده على ركوب عربة حنطور .. لو ارسلت الى اخيك خطابا ؟ المرض ليس عيبا .. لكنك هربت من القرية دون ان تخبره .. كيف سيلقاك ؟

ــ اهلا .. اهلا عمران .. عندما عضك الجوع عدت الى .. ؟ ..

ــ انني ...

ــ اين كنت طوال تلك الايام ..؟..

ماذا سأقول له ؟ عملت مع احد المقاولين في بناء احدى العمارات .. كنت اجري على السقالات .. احمل الزلط والخلطة .. اقضي ليلي في حجرة ليس لها نوافذ .. قبر . نفذ صقيع الليل الى عظامي كالدبابيس من خلال الغرارة القديمة التي حشرت فيها جسدي . تملكتني نوبات السعال.. عافت، نفسي الطعام .. عجزت عن حمل القصعة .. نصحني المقاول بالذهاب الى المستشفى .. اعطاني ربع جنيه .. لهفة التمورجي .. لو تركني اتناول طعام غذائي ؟

ــ حالات الخروج ليس لها اكل

ــ ولكنني اخذت « شربة » بالامس ولم أتناول طعاما منذ يومين

ــ ولو ..

ارتمى بصره فوق ظهر القطار .. ارتطم بالكتل البشرية التي تدثره .. تقيه من برد الشتاء ؟ .. اريد ان اسكت ثعبان بطني اولا .. في القرية كنت اجد اعواد الجلاوين والسريس وكيزان الذرة او قليلا من الفول الاخضر دون مقابل .. كنت أغافل الحاج سليم والقم ثدي البقرة في فمي وأشخب منه حتى أرتوي .. اما في البندر ! . كل شيء بالقرش.. لا احد يعرفني لكي يقدم الي شيئا بالاجل ! .

مرق من امامه طفل يطارد شابا وفتاة يتأبطان .. طلب منهما ان يمنحاه صدقة .

غاصت يد عمران في جيبه . . امسك بمنديله المحلاوي يربطه على عينيه ويبسط كفه ؟ .. بصق على الارض في وجه هذا الخاطر .. عندما كنت صغيرا رفضت في العيد ان اقبل يد احد اقاربي ليعطيني عديتي .. انطلقت الى الاراجيح .. اكتفيت بمشاهدتها من بعيد .. ضربني أخي:

ــ الحاج سليم غاضب منك .. لماذا لم تقبل يده ؟ كان سيمنحك قرشا ..

طول عمرك « وش » فقر .

اقتربت منه احدى النسوة . . طلبت منه ان يضع حقيبة كبيرة فوق ظهر عربة التاكسي .. وثبت الفرحة الى عينيه .. ستمنحك قروشا . . ستشتري رغيفين وقطعة حلاوة طحنية و . .

دفعه احد الحمالين بعيدا . . اختطف الحقيبة . سار وراء المرأة.. انطفأت الفرحة في اعماقه .. شيعه بنظرة نارية تعالى الى عواء .. رأى كلبين يتشاجران . انتزع الكلب الضخم العظمة من فم الكلب الهزيل.

قرض الجوع امعاءه .. تكور حول نفسه بجوار الحائط .. ليخنق طعنات الالم ويخرس نباح معدته .

دوت زغرودة لها ذيل .. وضعت امرأة ريفية سفطا على الارض . . احتضنته بين فخذيها .. راحت توزع سندوتشات :

قصة

شيراز

●

شــيراز يا بلد الازاهر والميـاه الجاريـة
الورد فيـك منـوع نفحـاته متهاديـة
للطـير في الاسحار الحـان بهف ساريه
تفريـده تسبيحـة وصـلاة شكر غاديـة
تتنقـل النظرات صبحا في الريـاض الزاهيـه
والغانيات يمسن في الجنات قرب الساقية
بسمـاتهن يعدن للمحرور برد العافيـه
الشهـد والايناس في نغمـاتهن الهاديـه
النطـق جرس ناعـم وصدى لنفس راقيه
ينفحـن انفاسـا وعرفـا طيبا كالغاغية
الله يا شيراز يا مجلى النفوس الراضيه
الضيف فيك مكرم والذكريـات غواليـه
يا طيـب ارض اهلها لطف وروح ساميـه
لله يـا شيراز يا بلد العلوم الوافيـه
الذكريـات الحالمـات هـوى بقلبي شـاديه

عيسى ميخائيل سابا

ـ شيء لله يا سيدي برعي . . نذرت الله نذرا اذا خرج زوجـي من المستشفى سليما معافى ان أوزع على الفقراء سندوتشات فول وطعمية .

اندفع الاطفال حولها كالجراد .. احاط بها الرجال والنساء .. هـب عمران من مكانه .. وقف حائـرا .. عيناه تنبشان عن منفذ .. دفعته يد في غلظة .. سقط علـى الارض . . الاقدام المهرولة تمرق بجوار راسه. فئوس مشرعةتتهيأ لمزيقها . . . جرجر جسده من بينها . . . استماتت يـده المتلهفة على اخر سندوتش فـي السفط .

تطلع الى الرغيف المتنفخ بأقراص الطعمية وشرائح الخيار المخلل بعينين منتشيتين . لم يصدق انه ظفر به؟ .. قبل ان تهوي اسنانه المتحفزة لتنهشه. وقف بجانبه رجل عجوز هزيل يتوكأ على عصا خضراء :

ـ اعطني لقمة .. لم اتناول طعاما منذ ثلاثة ايام

شيء في صدره ينتفض.. وجديده تمتد نحو الرجل العجوز حاملة معها الساندوتش .. كاملا .

المنصورة عبد العزيز الشناوي

الاديب

لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر
يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسورية : ٢٥ ليرة لبنانية

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ١٠٠ ل.ل.

في الخارج العربي : ٥٠ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي
١٠٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي

سائر الاقطار : ٢٥ دولارا بالبريد العادي
٥٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار :

في لبنان وسورية : ٥٠ ل.ل. كحد ادنى
في الخارج ١٠٠ ل.ل. او ٥٠ دولارا كحد ادنى

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد
الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر
للاعلان تراجع ادارة المجلة

الادارة : ٢٢٣٨١٩ — Dir : 223819
المنزل : ٢٢٥١٣٩ — Dle : 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :
مجلة الاديب ــ صندوق البريد رقم ٨٧٨ــ١١
بيروت ــ لبنان

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول
البير اديب

الادبية في القرن الثامن عشر في اوربا كثرة هائلة ، فقد قال « فولتير » انه كانت تظهر في اوروبا ١٧٣ صحيفة ادبية في الشهر ...

وظهر في لندن في سنة ١٧٧٦ مجلة انجليزية فرنسية كانت تلخص ما ينشر في ٥٣ مجلة اسبوعية تصدر في لندن .

ويقول الكونت فيليب دي طرازي في كتابه (تاريخ الصحافة العربية) : « وقد بلغ مجموع الصحف منذ ظهور اول جريدة عربية عام ١٨٠٠ حتى نهاية عام ١٩٢٩ ــ اي في مدة مائة وثلاثين عاما ــ ثلاثة الاف وثلاثا وعشرين صحيفة ... ومن دواعي الافتخار ان القطر المصري كان سباقا في مضمار الصحافة العربية الى نشر الجريدتين الاولين اللتين قرأهما ابناء الضاد، وهما جريدة « التنبيه » التي صدرت في ٦ من كانون الاول سنة ١٨٠٠م في الاسكندرية ، وجريدة «الوقائع المصرية» التي ظهرت في كانون سنة ١٨٢٨ في القاهرة . »

واول من استعمل لفظ الصحافة بمعناها الحالي كان الشيخ نجيب الحداد منشيء «لسان العرب» في الاسكندرية . وكان الصحفيون في اول الامر لايفرقون بين الجريدة والمجلة في الاستعمال. ولكن كلمة REVUE كانت هي المستعملة عند الفرنج في مقابل ما اطلقنا عليه نحن كلمة «المجلة». فلما تولى الشيخ ابراهيم اليازجي ادارة «صحيفة الطبيب» البيروتية سنة ١٨٨٤ بالاشتراك مع الدكتور بشارة زلزل والدكتور خليل سعادة اشار باستعمال لفظة «مجلة» قائلا عنها : انها صحيفة علمية او دينية او ادبية او انتقادية او تاريخية ، او ما شاكل ذلك ، تصدر تباعا في اوقات معينة . وبذلك ثبت هذا الاسم وتابعه في ذلك جميع المجلات التي صدرت بعد مجلته ، كما اصطنعته الدوريات التي كانت قبلها .

وعندما انشا الشيخ ابراهيم اليازجي والدكتور بشارة زلزل مجلة البيان في القاهرة قالا عن المجلة انها : « جليس العالم ، واستاذ المريد، والموعد الذي يتلاقى فيه المفيد والمستفيد ، بل هي خطيب العلم في كل ندوة ، وبريده الى كل خطوة ، والمشكاة التي تستصبح بها بصائر اولي الالباب ، والمنار الذي تأتم به المدارك اذا اشتبهت عليها شواكل الصواب ... »

ولو شئنا اليوم ان نضع تعريفا موجزا جديدا « للمجلة » لقلت عنها : انها صورة مختصرة ، سريعة، متجددة، رخيصة الثمن لدوائر المعارف .

ونحن لا نعدو الصواب اذا قلنا ان وظيفة المجلة كانت قائمة في حياة المجتمع العربي منذ قديم . وكانت هذه الوظيفة تؤدي بطرق تلائم العصور . فمن ذلك مجالس الادب والمناظرات والامالي ، وتناقل الروايات . بل ان كلمة «مجلة» بمعنى قريب من معناها الحديث ، قديمة في لغتنا العربية . ففي لسان العرب لابن منظور : « والمجلة : الصحيفة فيها الحكمة . كذلك روى بيت النابغة :

مجلتهم ذات الاله ودينهم ... قويم فما يرجون غير العواقب

يريد : الصحيفة ... وقال ابو عبيد : كل كتاب عند العرب مجلة. وفي حديث سويد بن الصامت ، قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لعل الذي معك مثل الذي معي . فقال : وما الذي معك ؟ قال: مجلة لقمان . كل كتاب عندالعرب مجلة . يريد كتابا فيه حكمة لقمان . ومنه حديث انس : القي الينا مجال ــ هي جمع مجلة ــ يعني صحفا ».

ومن الشائق ان كلمة Magazine التي يستعملها الانجليزوغيرهم بمعنى « مجلة » كلمة عربية الاصل . واول استعمال لها بمعنى الصحيفة الدورية المشتملة على مقالات في موضوعات مختلفة كان في سنة ١٧٣١، عندما ظهرت مجلة باسم The Gentleman's Magazine وقد وصفت نفسها بانها مجموعة شهرية تضم ، فيما يشبه المخزن ، مقالات في الموضوعات التي ستتناولها بالكتابة . وهذا « المخزن » الذي تشير اليه يرجع الى ان كلمة : Magazine استعملت في اوربا اول ما استعملت بمعنى مخزن للبضائع ، نقلا عن الكلمة العربية « مخزن »، وكان هذا الاستعمال شائعا في الاسبانية والفرنسية ، ثم استعمل لخزان

البندقية الذي يحتوي على عدة طلقات .

والان انتقل الى العمل العظيم الذي يسعدني ان اقدمه ، وهو بلا مبالغة ـ عمل علمي ممتاز ، يكشف عن «مجلة روضة المدارس » التي كانت ـ كما وصفت في هذا الكتاب ـ « بوتقة » أدبية . ويعتمد نجاح التاريخ على التعاون العلمي القائم على المزايا التي يتمتع بها المؤلفان: محمد عبد الغني حسن ، وعبد العزيز الدسوقي ، وهي مزايا علمية واسعة ، ومزايا خلقية رفيعة . فاثمر ذلك التعاون هذه الثمرة التي تذكرني بتعاون علمي عظيم الثمار في الجيل السابق ، وهو الذي كان يجمع الاستاذين الجليلين المرحومين : علي الجارم ، ومصطفى امين. ولولا التزام الحياء لذكرت اثنين اخرين جمعتهما في التاليف ـ وفي غيره ـ محبة العلم وانكار الذات .

ان التاريخ لمجلة من المجلات يحتاج الى خبرة ممتازة في البحث، والموازنة ، والنقد ، والالمام بالتاريخ الادبي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي لحقبة طويلة ، يسبق جزء منها ، ويلحق جزء آخر، العصر الذي صدرت فيه المجلة التي يؤرخ لها . فالموضوعات التي تطرقها المجلة ينظر فيها المؤرخ نظرة فاحصة من حيث كونها جديدة تدعو الى حركة جديدة ، او من حيث كونها امتدادا لافكار ومذاهب سابقة لعصر المجلة. وقد يمتد بصر المؤرخ ـ بل لا بد ان يمتد بصره ـ الى اثر موضوعات المجلة في العهد الذي يلي صدورها ، سواء اكان ذلك الاثر انتشارا لما جاء فيها من اراء ، او تعديلا لها او رفضا لها . ومن هنا لم يكن بد لمن يتصدى للتاريخ للمجلات ان يكون خبيرا بالحركات الفكرية ، والتيارات الثقافية ، قبل عصر المجلة وبعده ، الى جانب عصر المجلة نفسه .

ولا بد ان يتضمن التاريخ لمجلة من المجلات حديثا يعرف بالكتاب الذين قامت المجلة على اقلامهم . وهؤلاء الكتاب ينتمون الى فروع متعددة من المعارف ، والوان من الثقافات . ومهمة المؤرخ هنا مهمة شاقة .

وقد تحقق في هذا التاريخ لمجلة روضة المدارس كل ما يتطلبه العلم والفن والمنهج . فقد كان تصنيف الاستاذين المؤلفين تصنيفا علميا دقيقا ، حصر كل ما ينبغي ان يذكر عن المجلة ، ابوابا ، وفصولا ، بل فقرات ...

ومما يجدر بي ان اشير اليه ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ ان مما سجله المؤلفان في هذا الكتاب ، الاشارة الى بعض المسائل التي سبقت « مجلة روضة المدارس» الى الكتابة عنها . كموضوع : « تلوث الجو » الذي كان الكاتب «منصور احمد » اول من كتب عنه في الشرق العربي ، قبل ان يكثر الحديث عنه في زماننا الان ، باكثر من قرن من الزمان .

كذلك اشار المؤلفان الى نشاة « الاقصوصة » في مهدها عندما عرض البحث للنماذج التي نشرت في المجلة ، وهو امر لم يذكره احد من مؤرخي نشاة الاقصوصة . وهذا يذكرني بما سبق ان اقترحناه ـ منذ بضع سنوات ـ في لجنة الدراسات الادبية بالمجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية ، من تتبع نشاة الحركة النقدية في الاداب العربية ، في بطون المجلات العربية منذ نشاتها . وهو مشروع صنو لمشروع التاريخ للمجلات ، الذي نجني باكورة ثماره في هذا الكتاب الذي بين ايدينا .

ومن المكاسب العلمية في هذا « التاريخ » ما نجده في الباب الذي عقد للتعريف بكتاب « مجلة روضة المدارس » من تحقيقات قيمة تتصل بتصحيح الاخطاء الشائعة عن بعض الكتاب ، في التواريخ المتصلة بميلادهم او وفاتهم ، وفي صحة اسمائهم ، وفي بعض الاحداث المتعلقة بحياتهم. ومن امثلة ذلك ، التصحيحات التي ذكرت في الترجمات الخاصة بكل من: علي فهمي رفاعة ، والدكتور حسن محمود باشا ، وصالح مجدي ، والدكتور سالم سالم باشا ، وعثمان مدوخ ، ومحمد قدري باشا .

والحق ان الباب الذي خصص بهذه الترجمات لكتاب « مجلة روضة المدارس » يعد ضميمة قيمة للبحث . فقد تضمنت كل ترجمة ارفى موجز يكتب عن صاحبها : فيها البيانات الاساسية ، مضافا اليها اشارات الى انتاجه الادبي والعلمي بصفة عامة ، وما ساهم به في مجلة « روضة المدارس » بصفة خاصة ، مع عدد من المراجع التي يمكن ان تستوفى منها سيرته . وبلغ من حرص المؤلفين على التعريف بهؤلاء الكتاب انهم لم يتركوا « اصحاب الوحدات »، اي الذين لم تزد مساهمتهم على مقالة واحدة في طول عمر المجلة .

وبعد : فهذا الكتاب : «روضة المدارس ، نشاتها واتجاهاتها العلمية والادبية » ـ للاستاذين محمد عبد الغني حسن ، وعبد العزيز الدسوقي ـ تاريخ لمجلة ثقافية عظيمة . وهذه المقدمة اشبه بتاريخ هذا التاريخ...

وشتان بين ما قام به المؤلفان في التعريف بالمجلة ، وما قمت به في هذه المقدمة بالتعريف بهذا العمل الجليل .

القاهرة — محمد مهدي علام

•

الاحباش بين مأرب وأكسوم

تاليف ممتاز عارف ـ ٤٨٤ صفحة ـ منشورات المكتبة العصرية بصيدا ١٩٧٥ .

عرفت الاخ الاستاذ ممتاز عارف ، استاذا تخصص في الزراعة ، في احدى الجامعات الاميركية ، ولما عاد الى وطنه ، العراق ، أشغل وظائف عدة، كان اخرها ، عمادة كلية الزراعة ، في جامعة بغداد .

ولما انتدب خبيرا من خبراء منظمة الغذاء والزراعة ، التابعة لهيئة الامم المتحدة ، في مطلع الستينات ، كما اعتقد ، انقطعت عني أخباره ، الا لماما ، فقد اختير للعمل في بعض الاقطار الافريقية ، متنقلا بين أقطارها الشمالية ومدغشقر والصومال ونيجيريا فالحبشة ، صارفا من عمره ، المديد ، في هذه البلاد زهاء الثماني سنوات ، ولم اكن اعلم اين استقر به المقام بعد ذاك .

وفي مطلع شهر آب ، الماضي ، فوجئت بزيارته الكريمة ، اذ تفضل عني بهذه الزيارة ، حاملا بيده ، هدية ثمينة ، تلك هي كتابه البكر ، على ما أظن ، وهو « الاحباش بين مأرب وأكسوم » وبقدر سروري بعودته الى الوطن ، سررت لاقدامه على الولوج في ميدان الكتابة والتاليف ، وعلى خروجه على ما درج عليه غيره من الخبراء العرب الذين تسنى لهم العمل في مثل هذه الاقطار النامية ، دون ان يخرجوا على الناس بنتائج ما شاهدوه ووقفوا عليه من غريب الاطوار والعادات والتقاليد في تلك الاقطار.

ورب سائل يسأل ، عن السبب الذي حمل الاستاذ العارف ، على ان يخص الحبشة وحدها بدراسة خاصة ، تحتويها صفحات هذا الكتاب الا ان الاستاذ نفسه ، قد أجاب عن هذا التساؤل في مقدمة كتابه قائلا « .. كانت الحبشة هي القطر الوحيد الذي ترك في ذاكرتي ، وفي اعماق نفسي ، احاسيس وانطباعات لا تمحى ، ففي الاقطار الاخرى ، كان كل ما في مظاهر الحياة العامة ، اليومية ، واساليب اعمال الناس ، وفي بعض الحالات ، حتى معيشتهم ، يعكس طابع الدول الاوروبية التي استعمرتهم ما عدا الحبشة ، فقد برزت فيها صفات ومميزات أصيلة عديدة ، مما جعلها تختلف اختلافا كليا عن بقية الاقطار السوداء ، والى جانب ذلك فقد وجدت فيها من المتناقضات ما لم أجده في اي قطر اخر ، فعلى الرغم من ماضيها الحضاري بالنسبة للشعوب الافريقية الاخرى ، كانت أول دولة افريقية وضعت قدمها في عصبة الامم ، كبلد مستقل ذي كيان قديم في أوائل العشرينات وكانت من بين الدول التي ساهمت في تأسيس هيئة الامم سنة ١٩٤٥ الا ان قدمها الاخرى ما زالت راسخة في ظلمات العصور الوسطى . »

لقد جاء الكتاب بـ ـ ٤٨٤ ـ صفحة من القطع المتوسط ، توزعتها أبوابه (الثمانية والعشرون) اذ تناولت بالبحث فيها عن البلاد وأهلها، وعلاقاتهم بجيرانهم ولا سيما (العرب) منهم ، وصلة التنافس الدولي بهم ، ونجاح بعض الدول الاوروبية باجتياحها ، واحتلالها ، كما تناولت بالبحث الكنيسة الحبشية ، وأثرها في المجتمع ، والاباطرة وما فعلوا من افاعيل لتثبيت حكمهم ، وغزو الطليان لها وخروجهم منها بمساعدة الانكليز ، وسيطرتهم على ارتيريا ، وما الى ذلك الى اخر فصل تحدث فيه ، عن ثورة العسكر على هيلاسلاسي ، وانتهاء حكمه الى الابد .

لقد قرأت ابواب هذا الكتاب الماتع ، وانهيت فصوله بسرعة ، وليس لي بعد هذه القراءة ، الا ان أهنئ الاستاذ على توفيقه في اعداد مادة الكتاب ، وتقديم ما حصل عليه من معلومات بهذا الاسلوب السلس الشائق البعيد عن التحذلق والتعقيد . ويطيب لي ان اقدم في بـاب « مكتبة الاديب » أهم ما خرجت به من حقائق وفوائد وطرائف ، بعد هذه القراءة ، رغبة في اشراك القارىء في الوقوف عليها ، وهي كما يأتي:

١ ـ أصل الاحباش :

يقول المؤلف ان « الاحباش » قوم من القبائل السامية التي نزحت من جنوب الجزيرة العربية ، وقد امتزج دمهم بالدم الحامي على تعاقب الايام ، فاصبح هذا المزيج البشري المطعم يعرف بـ « الاحباش » . ويقول ان هذه التسمية جاءت نسبة الى احدى القبائل اليمانية المعروفة باسم « حبشات » . وان اول لغة مكتوبة لهم هي « لغة الجعيز » المنسوبة الى احدى القبائل اليمانية ايضا وهي قبيلة « الاجاعز »

٢ ـ ملكة سبا والاحباش :

وتحدث المؤلف عن ملكة سبا التي تسمى عندهم باسم « ماكيدا » وعن الاسطورة الشائعة عند الاحباش ، والتي تقول : ان هذه الملكة ، لما سمعت بالملك سليمان ، شدت الرحال اليه وكان ذلك في حوالي سنة ٩٧٠ ق.م. ومن طريف ما ترويه هذه الاسطورة ، ان هذه الملكة كانت قد انجبت وهي في طريق عودتها الى بلادها ، مولودا ذكرا ، من سليمان نفسه ، وعرف باسم « ابنا حكيم » أي ابن حكيم . فلما شب وترعرع وقوي ساعده ، تنازلت له عن العرش ، فاصبح ملكا وتوج باسم « منليك الاول » .

ويقول المؤلف « ان اسطورة ملكة سبأ ، والملك سليمان ، تمثل جزءا هاما من التراث الحبشي .. » ولكنه يعلق على هذه الاسطورة قائلا « ان الاتجاه العلمي المعاصر ، لا يقر هذه القصة ، بل يؤيد وجهة النظر العربية ، على ان بلقيس كانت ملكة سبأ في اليمن » ومهما يكن من أمر ، فان هذه الملكة وابنها ، هما اللذان ادخلا الديانة اليهودية في الحبشة.

٣ ـ الحبشة والديانة المسيحية :

اما كيف اصبحت الحبشة ، تدين بالمسيحية ، فقد أوضح المؤلف ذلك قائلا :

« ويذهب الرواة مذاهب شتى ، الا ان اكثر الروايات شيوعا في المصادر التاريخية ، هي ان أخوين سوريين ، كانا مسافرين ضمن جماعة في البحر الاحمر ، فغرقت سفينتهم ، ونجيا وحدهما فاخذا الى الملك في « اكسوم » ولدى وصولهما مثلا بين يديه ، واعجب بهما ، فعين احدهما وهو « ايديسيوس » خادما وساقيه الخاص ، اما الثاني واسمه « فرومانيتوس » فعينه كاحد امنائه وناظر خزينته . وبمرور الايام قوي نفوذ هذا الاخير وعلا شانه في البلاط بحيث لما دنا اجل الملك ثم وافته المنية ، نصب وصيا على العرش ، اذ كان « أزانه » ابن الملك ما زال صبيا.

ففي هذه الفترة ، عمل فرومانيتوس ، بكل دهاء وحكمة لزرع بذور الدين الجديد بين افراد الحاشية ، واخيرا تمكن من الملك « أزانه » الذي اعلن النصرانية دينا له . وسافر فرومانيتوس الى الاسكندرية ليزف هذه البشرى الى بطريك الاقباط هناك ، فما كان من هذا الاخير الا ان عينه ، مطرانا للكنيسة القبطية في الحبشة ، فكانت هذه السابقة اي تعيين مطران للكنيسة الحبشية ، أول سابقة ارتبطت بموجبها الكنيسة الحبشية ، بالكنيسة المرقسية في الاسكندرية ، ومنذ ذلك التاريخ، أصبح بطريرك الاسكندرية هو الذي يعين مطارنة الكنيسة الحبشية من بين الاقباط المصريين ، ومضت هذه السابقة سارية المفعول عبر العصور حتى عام ١٩٥٨ ، حينما ادخل تغيير جوهري على هذا المبدأ ، اذ استقلت الكنيسة الحبشية عن الكنيسة الام ، فوجب ان يكون « أبونا » اي المطران « حبشيا » يرشحه الامبراطور بناء على توصية المجلس الديني الحبشي، ويصادق على تعيينه بطريرك الاسكندرية . »

٤ ـ المسلمون في الحبشة :

واذا كان الامر كذلك ، هل يمكن القول ان الاكثرية الساحقة من الاحباش مسيحيون ام لا ؟ واجابة على القول ذلك يقول المؤلف « ان البت في سؤال كهذا ، الى جانب الافتقار لاي نوع من المعلومات الاحصائية والحقائق التي يركن اليها ، في الحقيقة مسؤولية علمية ، ولو ان الرأي السائد لدى الكثير ، هو ان أثيوبيا تتمتع باغلبية مسيحية كبيرة على الاقل »

وقد ظهر له بعد دراسة ، مؤلفات عدد من الكتاب الاجانب ان من الصعب القول ان المسيحيين يشكلون اكثرية السكان ، وذلك نتيجة لذلك واستنادا الى ملاحظاته وتتبعاته الشخصية ، فهو يميل الى الاعتقاد «بان المسلمين والمسيحيين ربما كانوا متقاربين من حيث نسبة كل منهما للمجموع . »

٥ ـ امبراطور غريب الاطوار :

وهذا الامبراطور هو « ثيودور الثاني » الذي تولى شؤون الحكم في الحبشة في منتصف القرن التاسع عشر ، على الرغم من كونه خرج من عامة الشعب . لقد تحدث المؤلف باسهاب عن حياة هذا الامبراطور الذي لم يكن الا شابا مغامرا تمكن في بحر سنوات معدودة ان يصبح أعظم اباطرة أثيوبيا . وكان اسمه في اول امره « كاسا » ولكنه اختار الاسم «تيودور» تحقيقا للاسطورة الحبشية القديمة التي تقول « انه سيظهر يوما ما ملك

اسمه تيودور له من القوةوالسلطان ما يمكنهمن جمع كلمة البلادوتوحيدها ودحر المسلمين واستعادة بيت المقدس » .

لقد قام هذا الامبراطور ، في اول ايام حكمه بمحاولات اصلاحية ، لكنه لم يستطع من تحقيق كل ما أراد تحقيقه . وكانت تصرفاته في كثير من الاحيان تصرفات شاذة غريبة ، وله بسببها ، مشاكل مع بريطانيا ايام حكم الملكة فكتوريا ، فقد سجنممثلها مع عدد من المبشرين الاوروبيين وسجن ممثلها الثاني ، الذي كان في الاصل شابا موصليا ، هو المدعو « هرمز رسام » ولما لم تجد معه التوسطات للافراج عنهم ، جردتبريطانيا حملة كبيرة بقيادة الجنرال روبرت نابير ، فاحتلت الحبشة ، غير انه انتحر قبل ان يستسلم . وقد اثبت المؤلف نص رسالة له بعث بها الى هذا الجنرال جاء فيها قوله « .. لقد أمضى جنودكم ليلتهم الماضية بفرح وحبور ، سكرى من نشوة الانتصار ، فأسأله تعالى ان يريكم نفس المصير الذي كنت أنا فيه ، لقد كانت آمنيتي بعد ان سحقت مقاومة خصومي وتغلبت عليهم ، ان أقود جيشي نحو بيت المقدس لتحريرها من الاتراك وطردهم منها ، فان المحارب البطل هو الذي يستطيع ان يهز أقوى الرجال بين ذراعيه ، هزا ، كماتداعب الام طفلها بين يديها وترقصه..».

٦ ـ الامبراطور المسلم :

ويتحدث المؤلف عن الامبراطور « منليك الثاني » وما جرى قبيل وفاته من اجراءات حول اختيار وريث للعرش ، يتولى الملك بعده ، اذ لم يكن لهذاالامبراطور الا ابنته « زاوديتو » التي لا يمكن ان تكون امبراطورة على الحبشة بعده ، لان أمها لم تكن من بنات النبلاء ، فما الذي تم قبيل وفاته ؟

لقد أوصى ان يكون ابن بنته « شواريفا » التي تزوجت « الراس ميخائيل » في هرار ، وهو المسمى « ليج أياسو » أوصى ان يكون هذا الابن ملكا بعده ، ولما كان عمره اذ ذاك (١٤) عاما أوصى ان يكون تحت رعاية الاساقفةوالرؤس ، حتى يبلغ أشده ، وان يكون الجنرال «تاماسا» وصيا على العرش حتى يبلغ الملك سن الرشد .

ولقد أغضبت هذه الوصية زوجته « تايتو » التي كانت تطمع هي بالوصاية على العرش ، ولذلك لم يكد يتولى هذا الشاب شؤون الملكحتى بدأت بالعمل لابعاده عن العرش ، بدعوى ان في دمه ، دما اسلاميا ، لان أباه « ميخائيل » كان قد تنصر في زمن الامبراطور « يوحنا » وحمل هذا ان تنجح في دسائسها ضد هذا الامبراطور ، الذي اطلق عليه لقب « الامبراطور المسلم » ويكفي ان نشير الى ان النبلاء والقواد الذين تحالفوا ضده اجتمعوا في العاصمة ، بعد محاربته والانتصار عليه ، وطلبوا من مطران الكنيسة ، ان يصدر القرار الاتي نصه « بريئة رقابنا من الولاء للامبراطور لاننا لا نخضع للاسلام ولا يمكننا تسليم بلادنااللاجنبي عن طريق الاساليب الخبيثة التي يمارسها ليج آياسو ، ويقود مملكتنا للدمار . » وفي يوم ٢٧ ـ أيلول ـ ١٩١٦ صدر القرار بخلعه وتنصيب زاوديتو امبراطورة بدلا منه على ان يكون الوصي على العرش « الرأس تفاري » الذي سمي بعد ذاك باسم « هيلاسلاسي الاول » حين توج امبراطورا سنة ١٩٣٠ .

٧ ـ هيلاسلاسي الاول :

وتحدث المؤلف عن الكيفية التي أصبح بموجبها هذا الرأس ملكا، ولقب نفسه بلقب « ملك الملوك » الامبراطور هيلاسلاسي الاول .

ولا نريد ان نتحدث للقارىء حول غزو الطليان للحبشة في ايامه ، وكيف عاد الى بلاده من منفاه بمساعدة الانكليز بعد ذاك ، لان المؤلف قد أشبع هذا الموضوع بحثا ، ولكننا نود ان ننقل ما قاله حول الاسلوب الذي اتبعه في حكم البلاد ، وهو اسلوب الحكم الفردي المطلق ، ومن ذلك هذه الصورة « ومن الامور المألوفة في أديس أبابا ، ان يعج بلاط الامبراطور ، بعدد كبير من الناس ، وفي مقدمتهم الوزراء وشخصيات البلد ، مجتمعين كل حسب قدره ومنزلته ... ولطالما تجشمنا الصعاب بالاسفار بين بلد لاخر وجئنا الى أديس ابابا ، حسب مواعيد محددة ، مع بعض الوزراء وغيرهم فلا نجد لهم اثرا في الموعد المحدد فاين الوزير الذي قصدناه ؟ في البلاط . واين مساعد الوزير كذلك في البلاط الخ »

ولاضفاء الصفة الشرعية ، على الحكم المطلق ، جعل لقبه « ملك الملوك واسد قبيلةيهوذا ، القاهر المنتخب من الاله ، الامبراطورهيلاسلاسي الاول » ولكن هذا الاسد قبض عليه ودخل القفص وخلع عن عرشه ، في شهر تشرين الاول سنة ١٩٧٤ ومات في شهر آب بعد عام .

٨ ـ أكل اللحوم النيئة :

ومن العادات الغريبة التي ذكرها المؤلف ، عادة (أكل اللحوم النيئة) عند الاحباش ، ومما قاله عن هذه العادة قوله « وفي الاعياد والمناسبات الكبيرة ، تنصب الموائد الطويلة استعدادا لهذه الوليمة التي لا تشتمل على أي نوع اخر من الطعام ، فتجلب اطباق كبيرة ملأى بقطع اللحم المختلفة الاحجام بعظامها وشحمها ودمها وتوضع امام المدعوين » .

واثبت عن هذه العادة ، ما كتبه السائح بروس ، في يومياته اذ يقول « ثم يأتون بثور او بقرة ، ويربطونها في بابالحجرة او الكوخ ، ويشدون وثاقها ، فيتقدم منها اثنان او اكثر من المشتركين في الوليمة ، يتولون اقتطاع اللحم من جسم البهيمة ، وهي حية منتصبة على قوائمها الاربع، فيبدأ الدم يسيل منها نتيجة الجروح البليغة التي أحدثوها في جسمها وهي تملأ الفضاء خوارا من شدة الالم ، وتؤخذ قطع اللحم الى الجالسين والجالسات وهم يأكلون واللحم يؤكل ملفوفا باقراص من الخبز المصنوع من نوع من الحبوب يدعى باللغة الامهرية « تيف » .

٩ ـ مجالس القات في هرار :

وتحدث المؤلف عن مجالس القات في هرار ، حيث يعيش المسلمون من الاحباش ويقول « للقات مجالس خاصة ذات اصول وتقاليد كما هي الحال في اليمن ، متاصلة فيهم منذ عرفوا زراعة هذا النبات وتقام مجالسه عادة بعيد الظهيرة ، فقبيل مجيء الرجال الى المنزل تكون ربة البيت قد اعدت ما يقتضي لذلك ، ونظفت غرفة الاستقبال ، وصفت الوسائد حول جدرانها ، ليتكؤا عليها . وتقتضي التقاليد المرعية،افتتاح المجلس بتلاوة ... ثم يلي ذلك اشتراك جميع الحاضرين في ترديد بعض العبارات المألوفة عندهم في مدح القات ، وفوائده وامتداح الذي زرعوه والذين احضروه ، والدعاء لهم جميعا بالخير ، فمن جملة ما يرددون ما يلي :

رحم الله من زرع القات ، ورحم الله من عني به ، ونسأله تعالى ان يدخله الجنة ، وعوفيت اليد التي اقتطفته ، وعوفي من جلب لنا القات .

١٠ ـ الاجانب بين السلب والاعتداء :

وتحدث المؤلف في كثير من صفحات كتابه ، عن الفقر المدقع المسيطر على غالبية السكان ، وبسبب هذا الفقر ، كثيرا ما كان يتعرض الاجانب الى السلب والاعتداء من قبل الاحباش ، ويروى لتأييد ذلك الصورة الاتية « عندما زرت أثيوبيا لاول مرة سنة ١٩٦٢ نصحني زميلي ممثل منظمة الاغذية والزراعة الدولية ، المقيم في اديس ابابا ، بان لا اغادر الفندق بعد الساعة الثامنة ليلا ، مشيا على الاقدام لتحاشي الاعتداء والسلب اللذين يتعرض لهما الاجانب . واعلمني ان احد زملائه رجم بالحجارة امام الفندق ونزف الدم من رأسه .. هذه حقيقة لا مبالغة فيها »

وبعد : فتلك هي اهم الفوائد والحقائق والطرائف التي خرجت بها، بعد قراءتي لهذا الكتاب الشائق ، وهناك غيرها كثير ، اعرضها على القارىء ، عله يجد في مطالعة هذا الكتاب نفس ما وجدته فيه من جدة ومتعة وطرافة ، فضلا عما سيقف عليه من معلومات هامة ، عن هذا القطر الافريقي العريق .

شكرا للاستاذ العارف ، على هديته الثمينة ، وجهده المبذول في اعداد ابواب هذا الكتاب الماتع النافع ، آملا ان نقرأ في المستقبل القريب كتابا اخر يحدثنا فيه عن قطر مجهول جديد ، من تلك الاقطار التي عمل فيها ، وان كنا نعرف ان دخوله هذا الحقل ، حقل الكتابة والتأليف ، سيعود عليه بالمصاعب والمتاعب والخسارة في اكثر الحالات . بارك اللهفيه وافادنا من علمه وفضله وأدبه .

بغداد — عبد الرزاق الهلالي